
رواية
#45
مبارك الهاجري
ظُلمات
25.10.2018
أثر

مبارك الهاجري

ظُلُمات

رواية



ظُلُمــات

مبارك الهاجري
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية
الهاجري، مبارك
ظلمات / مبارك الهاجري الرياض 1435

72 صفحة 14.5 × 21.5 سم
ردمك: 2-4-01619-603-978
1 - القصص العربية. السعودية أ. العنوان
ديوي 813,39531 رقم الايداع 1435/8416
الطبعة الأولى 1436 / 2015



المملكة العربية السعودية- الدمام
تلفون : 00966505774560
الموقع الالكتروني : www.darathar.net
Email: info@darathar.net

إهـــداء

إلى الأيام التي شاخت في نفسي

ولم تجد بغيتها بعد.

أُخِـذْتُ عنـوةً مـن أمـام داري، سـألوني عـن اسمي فلم أتأخر عن إجابتهم، فكان هذا هو سؤالهم الأول والأخير، ثم لم أعرف إلى هذا اليوم، بل إلى هذه اللحظة: فيمَ كان هذا؟

كنـتُ قد بعثتُ بمكتـوبٍ للوزير يحيى العامري أشـكو له فتوى شـاذةً لقـاضي «الحمـيراء» ممهـورةً بنقـض ابن منصـور قـاضي المدينة السـابق، ولم أفعـل شـيئاً غير ذلـك أهـلاً لأن يُذكرَ بعدهـا إلا حين أن فتحتُ للحارسينِ بابي ليعتقلاني.

كنـتُ فيما قبل ذلك التاريخ بزمنٍ غير طويل كاتباً ليحيى في بعض شـؤون الخليفة مع عماله وولاته، ويحيـى كان وزير الخليفة الخاص. وقع نظـره عـلى كتاباتي حـين كنتُ أعارضُ ابـن جابر المقرئ في أيـام العرب، فعـرض عليَّ من بعد أن أكون كاتب الخليفة عنده، ثم إنَّه عاد ليسـتبدلني

قبـل أن أُتِمَّ عامي الأول بشـهرين بكاتبٍ آخـر؛ أجدى مني ـ بزعمه ـ في ذلك النوع من الكتابة الذي لا يقوم على طبعٍ ليِّن، ولا عاطفة تتبدَّى من خلف السـياق، ولا لسانٍ مزوقٍ بأدبٍ وبلاغة، ثم نصحني ملاطفةً أثناء ذلـك العـزل أن أجمع كتابـاً أضمُّ فيه أحسـن ما قيل في الخلفـاء من مدحٍ وثنـاء؛ لعلي أجد حظوةً أكبر عند الخليفـة، لأنني بذلك ـ والتنبؤ له ـ أقع على المكمن الذي يحبه الخليفة دون أن يصرِّح به لأحد، قالها وهو على ثقةٍ من ذلك؛ كيف لا، وهو وزيره وردفه. ثم إنَّه أقطعني أرضاً وأجرى عليَّ مالاً لستة أشـهرٍ خلت قبل أن تنقطع بيننا السـبل إلا ما كان من رسـالةٍ أو اثنتـين بعثتهما له أثناء ذلكـم الانقطاع أُوْثِقُ بهما حبـل المودة والإخاء، وأجدد بهما سـلامي وتحاياي فأجابني عليهما. ولو كان في أمر إرسالي إليه سـببٌ لكانتـا هاتـان أولى من الأخيرة، ولـو كان في الأخـيرة شيءٌ مما قد يكـونُ فيه جرأةٌ أو إقدامٌ على السـلطان لما غصَّ مجلـس الخليفة ولا ركن الوزيـر بحوائج الناس وشـكاواهم، فكيف بمن كان مثلي ممن رفعوا عنه الكلفة والحرج، وقربوه حتى صار من الخاصةِ وإن استعاضوا عنه بكاتبٍ غيره! وهذا ما لم أبرحه حيرةً في شأن سجني وشأني معهم!

عـدتُ بعد عامـين ونصف من ذلك الأسر أطلبهم أن يؤنسـوني

برفيق في هذه الغياهب من الظلمات، حتى المصباح الذي علقوه لي بعد لأيٍ في الحائط ما كان ليضيء تلك العتمة المبثوثة في أعماق نفسي. أجابوني إلى ذلك مرةً قبل عامٍ ونيِّف حينما أدخلوا معي مجنوناً ليُذهبَ عني همَّ تلك العتمة، ويخفف من ثِقل الوحدة التي طوَّقتْ نفسي، ويقبس لي من نوره نوراً لا يكاد ينطفئ؛ لكنه لا يهدي ضالاً، ولا يؤنس وحشةً، ولا يبعثُ أملاً. بقي معي يومين اثنين كدتُ أفقد فيهما ما تبقى لي من عقلٍ تساءلتُ به كثيراً: فيمَ أنا هنا؟ ولِمَ يكون هذا؟!

حاولتُ بدءاً أن أستحضر له بعضاً مما كنتُ أحفظ من شعر امرئ القيس، والنابغة، وزهير، ومدائح الأخطل، وتشبيب عمر بن أبي ربيعة، ونواقض جرير والفرذق، وشكوى أبي فراس في سجنه وحِكَم المتنبي، وبعضاً من أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام، إلا أن هذا المجنون لم يكن معطياً أحداً سانحة ولا بارحة من الحديث؛ كان لا ينفكُّ يولول بصوته ويضع راحتي يديه على أذنيه فيضربهما ويصيح، ثم يضحك، ولا يفوه سوى بكلمةٍ واحدة ظلَّ يرددها إلى أن خرج: قد كنتُ أعلمُ هذا، قد كنتُ أعلمُ هذا!

خفتُهُ على نفسي؛ غير أني لَمَّا رأيتُهُ لا يريد الاقتراب مني أبداً، لازماً

الأركان الثلاثـة التـي وَدَعْتُها له بدأت أتقرب إليـه بها ثبت في صدري من الكتب التي أمضيتُ عمري أقرأ عليها مما علمتُه منها. كان حفظي جيداً لا متقناً؛ لكنني كنتُ ألزِمُ نفسي باستحضاره حتى لا أموتَ من الأسى مكاني ذاك، على أني خشيتُ أن أنساه دفعةً واحدة حين يتداخل صوتي مع ولولته، فرجوتُ الحارس أن يخرجه، ونشدته بالله ألا يجيبني آمرهم فيما بعدُ بطلبٍ أبداً، وأنني راضٍ بما قد قسمه الله لي من الوحدة الأبدية.

أخـذوه في صبيحـة اليـوم الثالـث، ومـا كانـوا ليجيبـوني إلا إذا شـاؤوا، كانـوا يتبعون معي أقـصى ما بلغوه من مكـرٍ وخديعة؛ وكأنهم بذلـك رجال العسـس في كمينٍ يتسـقَّطون به عدواً لهـم؛ إذ يجيبوني إلى رغبتـي بما لا يخطر في بـالي، فيصنعَ في نفسي رهبةً لا قبل لي بها، فأنكفئ أول مـا أنكفئ على رغبتي تلـك؛ حتى لا أعودَ فأطلبَ أو أرغب في أي شيءٍ فيـما بعدُ، وعلى ذلك كان المجنونُ الإشـارةَ الجلية بأنني لن أجاب في طلبٍ أبداً، وأنني في نعيمٍ لا أدري ما يَحُلُّ بي إن أنا فقدته.

لسـتُ بعيـداً مـن يحيـى العامـري، فأنـا في سردابٍ تحـت قـصر الخليفة، والفكرة التي علقتها في مشـجب ظني حينما خلتُ أنَّ في الأمر لبسـاً ما، أو سـوء فهمٍ لم يقع فيه سـواي؛ تلاشـت مع مضيٍّ القليل من

الوقت بعدما كنتُ أستغيث بيحيى بأعلى صوتي في أرجاء الزنزانة طالباً منهـم أن يعلموه بأمـري؛ تظاهروا لي بـأن تلك الصيحـات كان لها أثرٌ بالـغ عليهـم، فوعدني أحدهـم بزيارةٍ من يحيى لينظـر في أمري؛ غير أنَّ ذلك الوعد لم يلبث مع الأيام أن يصبح مماطلةً وتسـويفاً وهو ما دفعني في آخر الأمر إلى أن أتشـبث بقضبان نافذة الباب وأصيح بأعلى صوتي، وأضرب بكلتا يديَّ ورجليَّ الباب؛ كأعرابيٍّ جافِّ الطبع غليظ السجية. لم ألبـث طويلاً حتى جُلدتُ بالسـوط ما يربو عـلى مائة وعشرين جلدة إلى أن أغشيَ عليَّ. كنتُ أنشـد جلادي بالله، وأقول له: بربِّك إلّا أبلغت الوزيـر، بربِّك إلا ذكرتنـي عنده، قُل له إنني فرغـتُ من الكتاب الذي أوصـاني بـه، قل له ذلك فحسـب. كانوا يخبروني في تلـك الأثناء؛ حتى قبـل أن يقـضيَ الآمرُ بجلـدي أنَّ الوزير ليس بوزيرٍ ـ تزعـمُ أنَّك تعرفه جيـداً ـ إذا لم يكـن يعلم بأنك هنا، فلـمْ أرضَ إلى أن ألححتُ فجرى لي ما جرى.

كنـتُ أوشـك على الخبال، بل لم أكن حتـى أعهد من نفسي تلكما الخفـة والعجلة التي بدوتُ بهما، وما كنـتُ لأرجع إلى ذاك الذي أعرفه في نفـسي إلا بعدمـا وقف الآمرُ على بـابي بأيامٍ من تلك الحادثـةِ لِيُقِرَّ في

نفسي كثيراً مما اعتلج بداخلها إبَّان أن ذكر لي بأنني إنما نزلتُ على أمر الخليفةِ وعلم الوزير، سألتُهُ عن السبب، فأجابني: بأنه لا يعلم حقيقة ذلك، عدتُ عليه بسؤالٍ استنكرتُ فيه علم الوزير وأنه ربما أن أحداً كاد للوزير ولم يعلمه أو لشيءٍ ما من هذا القبيل؛ لكنه أقسمَ لي أيماناً مُغلَّظة بأنَّ الوزير يعرف مكاني؛ فضلاً عن أنه قد يكون هو من أشار ـ غالباً ـ للخليفة بحبسي.

لستُ غِرًّا حتى لا أعلم بأنَّ الرجل صادق، لكنها أسباب النجاةِ تبدَّت في أن أختلق أيَّ شيءٍ يدفع بأملي لأخرج، وكان من بينها بل على رأسها أن يكون شفيعي في دخول هذا القصر من قبل هو ذاته شفيعي في الخروج منه؛ ولكنَّ لغةَ الآمر وبعض حراسه فيما قبل وشت بالكثير الكثير الذي تغافلتُ عنه لأصطنع قارباً للنجاة. مكث يعتذر لي من سوطهم، كأنَّه أشفق عليَّ، لا بأس، الله أرحم وأرأف بي منهم. طلبتُ منه أن يمدوني بقراطيس وصحف لأكتب عليها، فقد سئمتُ أن أكون خِلواً من عملٍ أكُدُّ به بدني وعقلي. لم يعدني بإجابة؛ لكنه اجتهد في أن يكون لوجهه معنى يشي عن سعيه في ذلك، أخبرني بأنه قد حيل بيني وبين ذلك إلا بأمرٍ من الخليفة نفسه، ثم أشار عليَّ بمصحفٍ موضوعٍ

على رفٍّ مرفوع وقال:

ـ لم يبيحوا لك سوى هذا.

ـ اللهُ بيني وبينهم.

جهدتُ أتأسى منذ أن أدركتُ أنني سألبث في السجن عمراً بأئمةٍ رفعوا من شأنه عند من كان مثلي ممن يسهل عليه ـ أي: السجن ـ أبداً أن يضعهم أو يضع منهم؛ بيد أنَّ معرفتي بنفسي تميطني عن ذلك الطريق أحياناً. أكثرتُ من قراءة سورة يوسف، أحببتُها كثيراً حتى كأني كلما كررتُها أقرأها للمرة الأولى، حفظتها، تعلَّقتُ بها، وكأن سيدنا يوسف عليه السلام معي هنا حيثُ أنزُل، يهبني من حكمته وعلمه، ويعبر لي بعض الرؤى التي أشعرُ أنها آذنةٌ بفرج؛ لكنه يبتسم ابتسامةً أعجز عن تعبيرها حين قصصتُ له رؤياي في تلك الفتاة، وهل يتفق مع تعبير «الطيلساني» أبي محمد؟ أم مع ذلك المعبر الذي لا أذكر اسمه؟ لم أجد غير ذلكم التأويل المضيء في جبينه، فاكتفيتُ به قطعاً. عشتُ معه زمناً لا أعلم كم هو؟ حتى إني أُرى أحياناً ذاك الذي يعصرُ خمراً في منامه يبتهل إلى الله في ناحيةٍ قصوى، ويُغشى على بصري تطيراً من الآخَرِ، فلا أجد له سانحةً في هاجسي فضلاً عن أن يعرض فيما يخيل إليَّ.

كانـت أياماً آنسـتُ فيها كثيراً من الوحشـةِ التي شـعرتُ بها ولا ريب. حفظتُ كتاب الله في مائةٍ وعشرين يوماً، كنتُ لا أستبطئ الزمن وهو يقتطعني على مهلٍ من أجلِ أن أركزه في صدري، فلا يتحلحل ولا يتخلخل!

ذات يـومٍ لم أعـرف نهارَه من ليله، كنـتُ أتحدث كما قد جرت به العـادة من بضع ليالٍ في أحد أيام العـرب في الجاهلية، وكنتُ قد بلغت الحدث التي أتى فيه النعمان بن المنذر إلى هانئ بن مسـعود يسـتجيرُ به، فوقفتُ مُنظِراً ذلك الحارس أن يسـألني فيمَ قال سـيد بني شيبان؛ لكن صـوتي عـاد إليَّ دون رد، فنظـرتُ مـن قضبـان الباب الصغـيرة، لأرى حارسـاً آخر مستنداً على ركنٍ يلي أحد الأبواب ويحتسي فضلةً من ذلك الكأس، لا أظنه ثملاً، سألتُهُ:

ـ أين صاحبك أليست هذه نوبتُهُ؟

لم يتحرك من مكانه:

ـ لِمَ تسأل؟

ـ لأنـه كان هنا بالأمس؛ لأنـه كان ينصتُ لي، فيجيبني ويتحدث معي، ألم تسمعني أنت منذ قليل؟!

ـ ليس هنا.

ـ هل أصابه مكروه؟

ـ لا، ولا تعد لمثل هذا، ارجع إلى جدارك وخلِّط عليه كما تشاء!

قالها حازماً؛ ولكنني أبيتُ إلا أن أدفع عن عقلي هذه الشبهة:

ـ سمِّه تخليطاً، وسمِّه ما شئت؛ لكن وربي إنَّ في هذا الجدارِ لحياةً تنأى بنفسها عن أن تُبعث في قلوبكم. صاحبك هذا وقع على شيءٍ منها، فعزَّ عليها أن لا يجمع الحياء مع رقة قلبه، فانتشلته بعيداً يتنقَّى من الدَّنس.

لا أعلم أحَلُمَ عن قولي؟ أم تُراه عطف عليَّ هو الآخر؟ بدأتُ أرتاب في أنَّ من يرق لي منهم يُقصَ دون إبطاء، كان ذلك غُرَّةً مع الآمر الذي جهد أن أهتدي من حيرتي تلك في أمر معرفة الوزير من عدمها في شأني، ثم وعده لي بالسعي وراء تحقيق رغبتي في دواةٍ وقراطيس وكتب، وإعلامي بأوقات الصلاة عقب أن التبست الأيام عليَّ فلا أعلم نهارها من ليلها، وفوق ذلك كله لينُهُ في المعاملة، ولطفُهُ في الحديث معي، فما لبث غير يسيرٍ حتى اسْتُعيض بما ليس لي فيه عوض، واستُخلف بما كان خيره كلُّه في أن يكف بعض شرِّه، ولعلَّ من خيره المقتطع أن آنسني بهذا

الحارس الذي أقصاه آنفاً، إذ صُرِف عمَّا يحسـن أن أسـمِّيَه مجازاً مسامرة كنت أمتِّع بها نفسي، نفسي التي بدأتُ أأتلفُ معها مجدداً عقب اختلافٍ لا يـزال لـه أثرٌ من حافر الزمـن وظِلف المكان وظهر المجـنِّ الذي قلبه عليَّ من لم أظنّ إلا أنه ردئي ساعة عُسرة، وردائي ساعة ضيق وحسرة! كان يجيبني ذلك الحارس المُقصى مما تسمح به نفسه ويظنُّ ألّا حرج عليه مـن أوليائه إن هو أطلعني عليه، وكان سـخيًّا في عيني مقتصداً مع ميلٍ إلى البخل في عين الحق. كما أنه كان محسـناً في إنصاته واسـتماعه وأسئلته التـي يطرحهـا عـليَّ في كثيرٍ من المسـامرات التي تبشُّ لنـا كل ليلةٍ تحينُ فيها مناوبتُهُ. كان في السرداب معي سـجينان، زنازينهما متفرقةٌ لا أعلم مكانها إلا بالجهة التي يومئ الحارس برأسه إليها عندما أخبرني. سُمِّيَتْ زنازيـن وهـي لم تُؤسـس ـ إذ بُنِيَتْ ـ هكـذا، كان بها ممرٌّ آمـن للخليفة، ومهاجـع لجنـده ـ هذه شـاهدتُها قبل أن يخبرني ـ جُعِلَـتْ في غير ظرفٍ سـجناً لخاصَّةٍ لا يحبهم الخليفـة ولا يحبونه أو هكذا يعتقد، كان أحدهما قـد أفنى شـبابه هنا من بواكـير عهد الخليفة الأب الـذي أمضى عشرين سـنةً، ثم اثنتي عشرة أخرى قضت من حكم هذا، شـاخ الآن كما يقول الحارس، له لحيةٌ تصل قريباً من سُرِّته. قال لي إنه لو كان له من شـفاعةٍ

أو من عونٍ أو من الأمر شيء لآثر ذلك كله للشيخ من دوني حين سألتُهُ أن يـأتي أحـدَ أبناء عمومتي، أو أبا الحسـن بخبري! لم يخـبرني أيضاً فيمَ سُـجِن الرجـل، لتصبح إجابة هذا السـؤال أبـداً عزيزةً عـلى أن يعرفها مثـلي وذلك الشـيخ ومـن لفَّ لفنا. ووددتُ أن لو أسـهب عن السـجين الآخـر، لا لشيء إلا لإطالة الحديث، وإماطـة أذى الوقت؛ لكنه اكتفى بأن قال لي إنه سـيق بعدي بشـهرٍ إلى هنا لا غير، ولم أكن أسـمع منه ولا من الشـيخ شـيئاً يبعث على الحياة إلا سُعالاً من الشيخ ميَّزته في أعقاب ذلـك الحديث بزمـن. أوعز الحارس ذلك إلى بعدنـا عن بعض؛ خاصة ذاك الأخير الذي ينزل جنوباً مني قريباً من السور الخلفي في ركن قصي؛ بيـد أني لم آبـه بحديثه هذا وقد وجدتُ عليـه إذ كان فظاً في رفضه ذاك؛ وما لبثتُ أن أُنسيتُ ما أجدُ في طليعة نوبته الأخرى، هو اعتذر لي أيضاً دون أن يذكـر لي الباعـث الـذي انتظرتُ بعضـاً منه منذ نزلـتُ، إلى أن غادر هو الآخر، ولستُ أدري هل عوقب حين جعلوه على أحد الثغور كما قيل لي من بعد، أم كان شـيئاً تجري به عادات العسكر التي لا أعرفُ عنها شـيئاً أشـغل به فكري في هذا الزمن الذي أنا أحوجُ إلى ساعاته أن تغـض الطرف عني، وألَّا تذكرني بنفسـها عبر خلـوٍ من أيِّ شيءٍ وإن لم

يكن ذا قيمةٍ تُذكر.

لم يعنّ لهم بعد هذه العامين والنصف التي خلت أن يترفقوا في أمري، ولم تُنقِص الأيام بمرورها من غلظتهم وقسوتهم شيئاً حين كادوا يضربوني بالسوط مرةً أخرى مغضبين أن طلبتُ منهم ألا أبقى وحدي، وأن يأتوني بنزيلٍ، أو يأتوا بي إليه. عدوا هذا نكثاً لعهدٍ ألزمتُ به نفسي سابقاً، وأنا والله ما أعطيتهم عهداً ولا موثقاً، وإن كان من شيءٍ غير ذلك قلتُهُ ساعة تقيةٍ مما كاد يذهب ببقيةٍ من عقلي من ذلك المجنون، فإني أبرأ إلى الله منه وإلى نفسي التي آثرتُ ألّا يصيبها من المكاره أول ما يصيبها سوى الموت؛ إذ إنَّ ما تبقى من رمق الحياة مع رغدٍ من الخبل هو موتٌ أنكى من ذاك الذي نخافه مذ حيينا.

فزعتُ من صرير الباب ذات ليلةٍ كللتها بنومٍ مبكر وقد فُتِح على غير عادةٍ جرت، وخشيتُ أنَّني على موعدٍ معَ عقابٍ آجل لطلبي وقد مضى عليه سبتٌ، وما الفترة التي مكثتها دونه سوى ملالةٍ ظننتها حلماً منهم، وما هو إن كان بِحلمٍ. جلستُ أستبصر بعيني، فإذا بالآمر ومن خلفه الحارس، فقال لي:

ـ هل تحفظُ تائية بشار؟

أُخِـذتُ لوهلـةٍ وكأننـي غُيِّبتُ عنـي، وكأن الزمـن طوى مكاني هـذا وخرج به مما أسـتطعت أن أعتصر عقلي لأدركه، فكـرتُ أنها لوثةٌ أصابتنـي، فبـدا لي الخرفُ فيها يشـبه التأمل وما هو إلا أن أغيب سـوى مـن المـادة التي تشي بوجودي أمـام الناظر. أعاد الآمرُ سـؤاله، فتنبَّهتُ فـإذا بي أعقـل ولله الحمد، قد أكـون غفوتُ إبَّان سـؤاله في المرة الأولى، وقـد أكون ممن لَوثَتُـهُ في مهدها تروح وتغدو. اتَّـكأتُ بباطن كفي على الأرض، فأجبتُهُ وأنا ما زلتُ ببعض فزعي الأول:

ـ بشَّار من؟ وأي تائية؟

ـ تائية بشار بن برد، هل تحفظها؟

ـ أي تائية أيها الآمر؟ من بعثك لهذا؟

ـ اسمع، نحن على عجلةٍ، هل تحفظها أم لا؟

ـ لبشار تائيات لا تائية، قل لمن بعثك ذلك!

وحين همَّ بالخروج التفت وقال لي:

ـ وهل تحفظها كلها؟

ـ أحفظ أربعةً منها.

خـرج، وما أغلق الحـارس الباب، بل ظل واقفاً بجانبه ينتظر. في

الأمرِ تدبيرٌ خفي عني، ولا ريب أنَّه يتعلق بشعر بشار بن برد، فخطر لي أن أجسَّ ما كنتُ أحفظه من تائياته بالوقوف على مطالعهنَّ:

أُرانـــــي قـــد تصابيتُ وقـــد كنـــتُ تناهيتُ

تـــــولى سـقــمـــي حتـى إذا قـــلـــتُ تـعـلَّـيـتُ

هذه في نسيبه بعبدة أذكرها، وثانيةٌ في حُبَّى:

قُـــــل لحـبـى قـربـيـنـي أنـــــتِ نـفـسي وحـيــاتي

وهمـــومــي حـــين أغـــدو وحـديـثـي في الـصـــلاةِ

والثالثة... تلك التي فيها: وإذا أبى شيئاً أبيتُهُ

ما أولهَّا؟ يبدو أنني أنسيتها؟

دهمنـي الحارس وهو يلقي بالتحية لمـن؟ يا إلهي إنه يحيى، الوزير يحيـى، طفقـتُ أدعو: اللهـم فرجاً من عنـدك، اللهم إنك قـد وعدتني بالإجابـة كما قد وعدت عبادك، اللهم فأنجزها لي عاجلاً يا ربَّ. وقف عـلى العتبة ولم يدخل، أمَّا أنا فـما أطلتُ النظرَ في حيائه المتواري، وكنتُ أشـدَّ حياءً منه لو منعته حشـمتُهُ وأدبه من أن تقع عينه على عيني بذلك العلوِّ السالفِ التي كانت تبصر منه، تحدَّث:

ـ كيف أنت يا أبان؟

نظرتُ له في أسفٍ، فقال قبل أن أجيبه:

ـ اسمع أنا على عجل، إذا كنت تحفظ تائية بشارٍ التي نهاه فيها المهدي عن الغزل، فالزمني لتلقيها على الخليفة. شاء أن يسمعها في هذه اللحظة، ولو كان في غير هذا الوقت، لما أشرتُ عليه بك!

سرت بي رجفةٌ مع أسفٍ على أسى، هي الأخيرةُ التي أنسيتُها، وهو الأول الذي ذكرتُهُ بخيرٍ في هذا القصر، ولم يذكرني بشيءٍ إلا أن فرضني الوقتُ على رأيهِ بباعثٍ من امتثالٍ عجيب لمولاه، بل إنَّه لم يتحرج مما فعله بي حتى، وإن كان وزيراً، علم اللهُ أنَّ النفس الندية لا تأسنُ ولا تفسد بتغير أحوالها، وإن المال بأمله، والجاه بعزته، والسلطة بحظوتها، لا تقطف من المرء إن هي قدرت عليه وتثنى لها قدرتَه على تمييز الخطأِ من الصواب، وعليه فالحياء والحرجُ والندم والتوبة والإياب نتيجةٌ من ذلك التمييز، حتى أثرُ المروءة المفتول الذي تطويه طوارئ السياسة حسب منفعتها لا يلبث أن يمتدَّ في شارب السجية، السجية تلك التي حمدتُهُ كثيراً عليها في زمنٍ مضى.

تبعتُهُ على أنَّ بي غصةً؛ لكنَّ أملي في أن أحظى بما يبدل من حالي حالاً أفضل جعلني أتغافل عما يعترضني من إساءةٍ أو إهانة، أو عمَّا أعتقد به ذلك، قد يكون الأمر عادياً لا يحتمل هذا الهوان الذي أشعرُ

به، غير أني أُجرحُ في مثل هذا؛ سواءً أكان حقيقةً أم شيئاً اعتقدتُهُ!

كنتُ أبصرُ ما دون المصابيح المعلقة عند كل بابٍ من أبواب الغرف المقسمة في السرداب، لعلي أعرف زنزانة الشيخ من ظلٍّ له تخلفه تلك الإضاءة، أو من صوتٍ له يصل مسمعي؛ لذلك تمنيَّتُه يسعل في تلك اللحظة، ولمَّا لم يفعل أُبْتُ إلى ذاكرتي أستحثها في مطلع أبيتُهُ.. إن الخليفةَ..

حين همَّ الوزير بأن يصعد أولى درجات السلم توقفَّت عباءته قبل أن يقف ويستديرَ إليَّ، فيقول:

ـ لا تبتدر الخليفة في حديث، ولا تعرض أمرك له ما لن يُفْسحَ لك عن ذلك، وكن أسرعَ في إجابتك سؤاله من أن يسمع رجع آخر حرفٍ منه. تذللَّ له وكن بين يديه مولى بين يدي سيده!

ـ لكنني أحتاج لمن يذكرني مطلع القصيدة فحسب؛ حتى أسترسل.. أعلمُ أني سأسترسل يا أبا عمارة!

ـ هو ذاك.

ثم صعد درجةً وأخرى فتوقف والتفت لي وأنا ما زلتُ في مكاني على أول درجة، مردفاً:

ـ التمس لنفسك مخرجاً يا أبان، واعلم أني لو كنتُ نافعَك بشيءٍ

لنفعتُك به حين كنتَ آمناً في بيتك!

أما والله لو لم يظهر من مروءته سوى أن صدَقني في هذه لكفى.

صعـدتُ خلفه وقد أرقتُ مـن المطلع إذ لم أهتدِ إليه، فجعلت أتوانى في الصعود حتى يرده الله لي رداً جميلاً، كنتُ قد دخلتُ على الخليفةِ من قبل حـين كنتُ بـوزني ذلك عندهم، وأعرف كثيراً مـن الآداب التي أملاها الخليفـة على خاصته لتُفرض على الوفود والزائرين والرسـل والعاملين أيضاً؛ لكن لم أكن قد دخلتُ عليه في جلسـةٍ خاصة كهذه أبداً، وهذا ما دعا العامري لأن يمليَ عليَّ ما ينبغي أن أتخلَّق به في هذه اللحظة.

صعد أولى درجات السـلم الآخر معترضاً سُـلَّمي، اسـتعجلني فتعجَّلـتُ خوفـاً مـن أن أفقد الفرصة. حـين انتهى بنا السـلم دلف إلى اليمـين فتبعتُـهُ وقد بدا ممرٌ طويل أكاد أرى آخره ولا أعرف إلى أي جهةٍ يفضي؛ لكنني لم أكد أطيل نظري حتى أرْختْ جاريةٌ لا أدري أين كانت سـتراً بيننـا وبينـه، ربما أشـار الوزير لها بذلـك، حتى إذا ما بلغنا السـترَ انعطـف بنا الممر شـمالاً ثم يمينـاً بعد رخامتين رأيتُ مـن أحدها وجهاً آخر أصبح لي، شـارباً بلحيةٍ لم يقطع بينهما سـوى شـفتين لا تبدوان كما همـا من غزارة الشـعر، أمَّا عمامتـي فخلتُها خضراء وأنـا والله على عهدٍ بصفرتهـا وأحسـبُ أنَّ أثر الزمـن الفائت قد وقع عليهـا حتى لا أقصر

فيـما بعـد احتجاجي عليه في أثـره على نفـسي دون تلك المقتنيـات التي بقيـت معي. في أول معبرٍ من اليســار وقف الوزيـر قريباً من الركن ذاته ولم يعـزب عـن نظري وأنا أتبعه، فإذا به يتمتـم للخادم ما فرغ منه حين بلوغي إياه:

ـ سيكفيك مؤونة أن تغتسل بنفسك، ثم تلبس وتتطيب. إلى ذاك سألقاك هناك عند الخليفة!

أظنُّ أنه أمر الخادم ألا يمنحني وقتاً أتجاوز به مما قد افترضه عليه، سألتُهُ وأنا أخلع ملابسي على عجلٍ حين أمرني:

ـ هل تحفظ شيئاً من الشعر؟

لم ينبس، وإنما مدَّ لي إزاراً قصيراً لا يتجاوز ركبتي إشارةً منه على أن أنزع سروالي ليشرع في عمله. مذ حبستُ وأنا لا يُسمحُ لي بأن أغتسل إلا في ليلة العيدين، ولم يكن هذا العفن الذي شاخ في ملابسي إلا سبب ذلـك أولاً وآخـراً، ثم إنَّه لم يكن قد خرف بعد بحكم شـيبته؛ لأنني قد جمعـت من الماء القليـل الذي يأتونني به لقضـاء حاجتي ووضوئي على مـدى مـراتٍ كثـيرةٍ كنت قـد أخفيته عنهـم في إناءٍ خلف قشـةٍ في ركنٍ أقصى، واغتسـلتُ به مرتين على خلوٍّ ثلاثة عشر يوماً جمعتُ فيها ما زاد عن الفضلة، فمُنِعْتُ من شربه سـاعةَ أن وقعتْ عينُ الخفير على شعري

وهو يقطرُ من الماء، وملابسي وهي منتشيةٌ من البلل، ثم إنَّهم بعد يومٍ وليلةٍ تامةٍ من توسلاتي التي لا تنقطع عادوا ليملؤون لي سقايتي بما يقدرونه ممسكاً لظمئي دون اعتبارٍ لما قد يعترضني منه حتى لو لم يكن طارئاً، لم أتأمل في ما وراء حماقتهم هذه؛ لكنني أعلمُ أنهم يريدون أن يطمسوا معالم إنسانيتي؛ ليستبدلوها بما ترضاه عنها دمامتهم وقبحهم. هم والله لا يحملون بين جنوبهم أنفساً؛ بل كُناسةً وزبلاً من شرِّ سواقط الناس ورذائلهم. لم أكن حرجاً حين مددتُ له بعفنهم الذي جعلوه لي كسوةً؛ لأنه أبداً لم يكن زيِّي ولا هيئتي. أشار على طستٍ كبيرٍ من نحاس بأن أجلس فيه وقد أزبد ماؤه الدافئ برغوةٍ من صابون وشيءٍ من أُشنان، أشاح عني حتى تغلغلتُ داخله، فشعرتُ بما لو قايضوني به على الخروج إلى الخليفة أو البقاء في هذا الطست، لبقيتُ دون حرجٍ. أخذ الخادم يصب علي بإبريقٍ كان في يده. ما كان ماءً خالصاً بل مشوباً بروائح زهريةٍ بديعة، ثم طفق يدعكني بما بلغت يداه من الماء في الطست بليفةٍ كانت في يده، قلتُ له وأنا أدلك فخذيَّ:

- ألا تحفظُ شيئاً من شعر بشار؟ أي شيء؟

لم يجبني، وكأنه لا يسمع، أو لا يعي ما أقول، إنما قبض قبضةً من شعر رأسي ليفركه، خشيتُ أن يكون الرجلُ أبكم، وإن كان قد سمع

من الوزير لكنه لم يجبه، لم أسـمع صوته، فالتفتُ له مشـيراً بسبابتي نحو شفتي:

ـ عذراً، لم أكن أعلم أنك لا تسطيع أن تتكلم!

تخابثـتُ؛ لأنَّنـي أدركـتُ في غور نفـسي أنه يتحـدث كأي أحد؛ لكنـه لا يؤثر الحديث معي؛ ولأجل ذلك الإزدراء الذي بعثه من نفسي عـليَّ، كانت تلك الكلمة، وكان وقعها عليه أن أمال برأسي للأمام حتى يفرغَ من فركه. قد يكونُ لصلعه سـببٌ يفسر تلك الشدة التي قبض بها عـلى شـعر رأسي، ولم تفلح تلـك الإضاءة التي جعلتهـا الجدران خافتة تشـبه ليلـةً قمرية في أن أتبين وجهه أكثر؛ لكنـه كان زنجياً أقل دكنةٍ ممن نعرفهـم من الزنوج عادةً، وأصلع الـرأس إلا من حاجبين كثَّين. تمنيتُ أن لو سكتُّ منذ أن تجاهلني قبلاً حتى لا أشعر بإزدراءٍ ممضٍّ حين أعاد الكرَّة، ثم: أكنتُ متأملاً أن أجد شيئاً من الأدب لدى هذا فأسأله لأريق شـيئاً مـن ماء وجهي، أم أنهـا رغبة الحديث مـع أيٍّ عقب ذلك الجمود في الـسرداب، أم أنهـا نشـوةُ أن ألقى الخليفـة فأفوز منه بأمـانٍ وصفح، عـلى أننـي لا أدري عن أي شيءٍ يصفـح؛ لكنني سأسـتغفره من كل ما اعتقـدتُ أنـه ذنباً بحق من كان له الحق أم لم يكن، وسـأرجو من الله أن يمسح على قلبه بمسوح الرحمة والعطف فيلين لي.

ما كان ليتأخر وهو من كان فظاً بسبب العجلة، عاد وفي يديه ثوبٌ مزبرقٌ في ظني وعمةً وعباءةً، خرجتُ من الماء حانقاً عليه وعلى ديباجة بشار. تنشَّفتُ بالإزار الذي أعطانيه من قبل على عجل. هنيهاتٌ حتى حضر حاجبٌ متقلِّدٌ سيفاً ينتظرني قريباً من الباب، زكت رائحة الطيب على الثياب حين لبستها أكثر منها قبل اللباس، ثم مسد الخادم بطيبه الذي معه لحيتي وشعري قبل أن أعتمر العمةَّ المهراة، هو شيءٌ من الامتنان خالطه شيءٌ من الحنق ما زلتُ أشعرُ به تجاه الخادم، فلستُ أدري إن كان هو من اصطفى هذه العِمَّة بلونها الذي هو لون بائستي الملقاةِ في الحمام؛ على أن هذه أطرى وأجود، إذا كان هذا فإنه توسم فيَّ سيادةً، وتالله ما جاوز، أم أنه شيءٌ اتَّفق مع شأني دون قصد، لا أدري غير أنَّ شيئاً نبيلاً أبى أن نختم لقاءنا دون أن نشعر بالمودة لبعضنا بعضاً، هذا ليس عني فحسب؛ إذ إنه أبدى لطفاً ورفقاً وهو يمسح بطيبه على وجهي وعباءتي. تبعتُ الحاجب حيثُ الخليفة، لم يكن من انعطافاتٍ كتلك؛ لكنَّ المسافةَ هذه المرة كانت أطول وأبهى. في هذا الممر الذي ظننتُ بعد لأيٍّ أنه موازٍ لذلك الذي أرْخت عليه الجاريةَ ستراً؛ نقشٌ فسيفسائي في ركنه الأيمن مواجهاً للقادم من المعبر الذي انعطفنا منه شمالاً، كانت ظباء تظللّن بشجرةٍ ويرشتفن من ماءٍ قريبٍ منها، منظرٌ

أزاح عن نفسي شيئاً من الغمة، ثم ..

يـا منظـراً حسنـاً رأيتُه   مـن وجـهِ جاريةٍ فديتُهْ

كان مطلـع بشـار الذي اهتـدى لذاكرتي أوقع في نفـسي من زينة البهـو الـذي أعرفه ولا أعرفـه، تلك القبـاب الثلاث، والشـمعدانات الضخمة، وبسط الحرير المفروشة تحت طريق الخليفةِ إلى عرشه، أعرفها حين أعقبتُ أبا عمارة مرتين بورقةٍ ودواةٍ لأكتب رسالةً عاجلة للخليفة في شأنٍ لأحد ولاته، ثم بصحبةِ ابنه الأمير زيد قبل أن يقضي ـ رحمه الله ـ قاصـداً الحـج في دابته التي ثارت به فسـقط عنها على رأسـه فمات من سـاعته، كان ذلـك في غياب الخليفة مـع الوزير لشـأنٍ لا نعلمه، وكان الأمـير رحمه الله يحـبُّ يحيى ويودُّ أن لـو اختُصَّ به مـن دون أبيه، فكان أن قرَّبنـي منه لما علـم بمنزلتي عند يحيى؛ لكن ذلك لم يدم طويلاً، ومن ثم لم يتأتَّ لي سـببٌ آخر حتى أعودَ للمكان ذاته غيرُ سـببي هذا، أمَّا ما لسـتُ أعرفـه في هذا البهـو، فكان في كل مـا عرفته فيه مـن قبل ثم عاد فتنكَّر لي بدءاً من القباب ذاتها، وانتهاءَ بتلك السقايات التي كانت تحيط بالعرش عن يمينه وشـماله وهي تصبُّ ماءً أحمر على بركةٍ أسـفل منها. كان سروري لا يوصـف، حتى أني لم أكد أبلغ مع الحاجب باباً مواربـاً في الركن الأيمن من العرش إلا وأنا أردد أربعةَ أبيات دون المطلع. حاجبٌ

آخر كان يقف على الباب استأذن لنا الخليفة، فكان أن دخلتُ وأنا أتعثَّر في عباءتي، ما كانت بأطول مني؛ لكنه خوفي ورجائي في ألا أخرج خائباً منقطعاً من كل ما بقي لروحي من أمل، وإنَّه لعمري لقليل!

قبل أن أسلم على الخليفة، دعوتُ الله في سري أن ينجيني بالقدر الذي لا سلطة فيه لأحدٍ علي، ولا أدنى من ذلك مما له القدرة على أن يضع من قدري الذي أعرفه لنفسي ولو لم يتعرف ذلك القدرَ أحدٌ في المجلس أو يعبأ به.

حين سلَّمتُ لم أكن قد ملأتُ عيني من النظرِ إليه، لا محبةً والله ولا معنىً بالغاً من الهيبة التي أخافها أول ما أخافها على نفسي؛ ولكن جرحاً غائراً أبى إلا أن يوقع نظري فيما حوله حين يصوبني وكأنني أنظرُ إليه. كانت شرفةً تطلُّ على حوضِ ماءٍ محاط بشجيرات عُلقت على زواياها شمعداناتٌ إناراتها أقوى من تلك التي التفت على بعضها الآخر، ووددتُ أن أستظلَّ بفيء نظرةٍ لما وراء الأسوار من هناك لكني خشيتُ أن يكون هذا الظلَّ محاطاً بأعينهم، فأشحتُ إليهم أنتظرُ إشارة البدء. كان الخليفة على كرسيه عن شمال الداخل إلى الشرفة محلِّ وقوفي قبالة سورها القصير الذي لا يتجاوز ذراعاً ونصف، كان يحيى عن شماله، بينما انتصف الشرفةَ خادمٌ حجب عني رجلاً لم أتبيَّنه يصبُّ إمَّا

نبيـذاً أو خمراً من كـوز خزف في أقداحٍ أحاطت بمائدةٍ من فاكهةٍ شـتى. كان الخليفـة يتفرَّسُـني، ولم يكن يشـغله عـن ذلك إلا القـدح الذي مدَّ بـه الخـادمُ إليه، ثم إنَّه أشـار له بأن يديـر علي قدحاً فأجلـس مما يليني. اعتـذرتُ ـ وقـد كان ذلـك لي ـ في امتنانٍ بأنني أحب أن أنشـد الخليفة واقفـاً، أومأ برأسـه أمارةً على رضـاه مع تلك الهيبةِ التـي لم تبطنها تلك النشـوة التي يبعثها ما في كأسـه ومجلسـه. جلس الخادمُ قبل أن تسـتوي يـدُ الخليفة في إشـارته لـه بذلك، ثم تبيَّنَ لي وجه الرجـل إياه، لم أكن قد شـاهدته من قبـل، كان قد كفَّ يده التي امتـدت إلى المائدة حين تنحنح الخليفة وقال لي:

ـ حسـناً، كان يحيى قد أبلغني أنك أدنى ما تكون في الشعرِ راويةً مُجيـد، وأنـك أول ما سـقيت منـه في دلـوك كان فيما جرى بـين الخلفاء وشعرائهم، وكنت ـ كما قال ـ تتهيأ لأن تجمع في ذاك كتاباً، وأنا لم أعهد عثرةً لأبي عمارةَ فيما هو فوق هذا، فهل لديك في الذي بعثك بشـأنه من قول بشار حين نهاه المهدي عن التشبيب، في قوله:

يا منظـــراً حسنـاً رأيتُه   مـن وجــهِ جـاريـةٍ فديتُه

كان يحيى قد أشـار لي بعينه شـيئاً هو فوق التوسل ودون المؤازرة إذ خشي أنني ما زلتُ ناسياً المطلع.

ـ أجل مولاي، ولتأذن لي:

يـا منظراً حسناً رأيـتُـهْ ... مـن وجـه جـاريـةٍ فديتُهْ

بعثتْ إلـيَّ تسومنـي ... بُـردَ الشبابِ وقد طويتُه

وتـقـولُ: إنَّـك قـد جفو ... تَ وكنتَ لي شجناً حويتُهْ

فـأريـدُ صُرمـك تـارةً ... وإذا ارعـوى قلبي نهيتُهْ

واللهِ ربِّ محـمـدٍّ ... ما إن غـدرتُ ولا نويتُه

أمـسـكـتُ عـنـكِ وربـما ... عـرض البلاءُ ومـا بغيتُهْ

إنَّ الخـلـيـفـةَ قـد أبـى ... وإذا أبـى شيئاً أبيتُهْ

أمـال الخليفةُ برأسـهِ طربـاً هنا وأشـار إلى الوزيـر وذلك الرجل بـأن يجمعوا على هذا البيت ومـا والاه أفهامهم، فطنتُ لذلك فابتدرتُ الخليفة ما يشتهي وأعدته عليه مرةً أخرى:

إنَّ الخـلـيـفـة قـد أبـى ... وإذا أبـى شيئاً أبيتُهْ

ومُخـضَّـبٍ رخـص البنا ... ن، بكى عـليَّ ومـا بكيتُه

ويشـوقني بيـتُ الحبيـ ... ـب إذا غدوتُ وأين بيتُهْ؟

قـام الخـلـيـفـةُ دونـهُ ... فصبرتُ عنه ومـا قليتُهْ

ونهـاني المـلـكُ الهُـمـا ... مُ عن النسيبِ وما عصيتُهْ

لا بـل وفـيـتُ ولم أضع عهداً ولا وأيـاً وأيـتُـه

إلى أن بلغتُ:

فـالأمـرُ غـيرُ مـقـصِّرٍ لو خفتُ صاحبيَ اتقيَّته

طرب الخليفة وزمَّ شـفتيه مستأنسـاً ثم قرع قدحه بقدح الوزير، ثم التفت لي مسروراً:

ـ أحسنت، أحسنت، هل تحفظُ شيئاً آخر لبشار قريباً من هذا؟

ـ أمـا لبشـار فنعـم، ولكـن ليس قريبـاً من هـذا، وإن شـاء أمير المؤمنين أن أنشـده شـيئاً يصف هذا المجلس وما فيه من النعم والسرور لأبي العتاهية فأنا على ما يشتهي الأمير؟

لم أكـن أتـم اسـم أبي العتاهيـة حتى رأيـت الكراهيـة على وجوه الثلاثة عدا الخادم، فإنَّ وجهه ما كان يشي بأي معنى غير ذاك المحصور بين جلوسه ووقوفه بإشارةٍ من الخليفة:

ـ أبو العتاهية، أتُراك تدرك ما تقول، أخشى أن تفسد علينا مجلسنا، وتخلع علينا شيئاً من صوفه ونحن نرفل في الحرير!

والله إني واريـتُ الانقبـاض ورائـي مـن ذلك الرجل سـاعة أن التقت عينانا، فما لبث أن تقدمني حتى وقف بيني وبين تملقه فيما يقول، كان يلتفت إلى الخليفة ثم إلى الوزير يريد أن يعرف رجع حديثه عليهما،

لا أظنُّ أن ليحيى سلطةً مطلقةً على هذا الرجل؛ ولكنه أقرب للخليفة ولا شك، وينبئ عن ذلك قرب مجلسه من الخليفة. كان في نظرات الوزير خشيةٌ من شيء يداريه كلانا من القلى البادي، وهذا ما يجعله في عين من لا يعرف ذا حظوةٍ لم تبدُ في هذا الموطن أعلى مما لذلك الرجل، لم أشأ أن أترك الخليفة يستقصيني من النظر أكثر، إذ كان على حاله ذا منذ أن تفوه الرجل بعبارته تلك، فقلتُ:

- تالله إني ما أتيتُ بطلب الخليفة وأنا أضمر في نفسي سوى ما يفوز برضاه وبهجته، وإني جعلتُ ذلك نصب عينيَّ مقدماً إياه على ما يشتهيه من كان في مثل حالي، وإن كان أبو العتاهية قد فشا بالزهد، فإنَّه قد طرق غير ذلك مما أعرف.

- لا أذكر أن له شيئاً قد طار بذكره..

- لعلَّ ذلك مما لا تعرفه يا هشام. حسناً، إن كان في وصف مجلسنا، فلا بأس، هاتِ!

كان قصاصاً لي من هشامٍ هذا، وإن لم يكن عن قصدٍ من الخليفة، غير أني ابتهجتُ لذلك جداً وتهيأتُ لانتصارٍ آخر لم أكن أعرف على من، ولمن هو، أغمضتُ عيني ثم ألقيتُ نظرةً على الحديقةِ النائمةِ بالأسفل:

لهفي على الزمنِ القصير   بين الخورْنقِ والسَّديرِ

إذ نحنُ في غُـــرفِ الجنا ن نعومُ في بحر الــسرورِ

في فــتـيــةٍ مــلــكــوا عنــا ن الدهــرِ أمثالِ الصقورِ

مـــا مــنــهــمُ إلا الجــســو ر على الهوى غيرُ الحصورِ

يـــتــــعـــــاورون مُـــدامـــةً صهباء من حَلَبِ العصيرِ

عــــــذراء ربَّـــاهـــا شعا عُ الشمسِ في حرِّ الهجيرِ

حـين أتيتُ على ذكر صهبـاء علمت أن ما يُـدار في الكؤوس هنا ليس بنبيذ، إذ طرب الخليفة أشـد الطـربَّ وبلغ به أن أفرغ ما في القدح بجوفـه من رشـفةٍ واحدة، ثم مد للخادم به يسـتزيد، ثم بعث بارتياحه لي وببسـمة ليحيى، دون أن ينظر لهشـام، وكان هذا انتصارٌ آخر لي على هـذا الرجل الذي مـدَّ بيده على المائدة ليأخذ فاكهةً ممـا يليه، كان وجهه يتمعَّـر. حمدتُ الله على ذلـك، ثم إني أعدتها حين أشـار لي الخليفة بيده حـين ملأ له الخـادمُ القدح. بعـث لي الوزير نظرةً هـي أرحب ما تكون منذ أن توطدت بيني وبينه الصلةُ التي وهى حبلها ولا شك، أمّا أنا فلم أبْسُـمْ إلا للخليفة مداهناً وإذا وقعت عيني على نظرةٍ ممن عداه عمدتُ إلى أصدق ما في صدري فمزجتُهُ بأشد ما يعتلج في نفسي من نقمةٍ وألم، فأسدد به عيني:

يــتــعــاورون مُــدامـــةً   صهباءَ من حلب العصيرِ

عـــذراء ربَّـــاهـــا شعا   ع الشمسِ في حرِّ الهجيرِ

لم تُـــدنَ مــن نـــارٍ ولم   يعلق بهـا وضَرُ الـقـدورِ

ومُـــقـــرطـــقٍ يـمـشي أمـا   م الـقـومِ كالرشأ الغريرِ

بزجاجةٍ تستخــرجُ الســ   ـرَّ الدفيــن من الضميرِ

زهراء مثــلِ الكوكب الدُّ   ري فـــي كـفِّ المُديــرِ

ثم أغفلتُ:

تــدع الـكــريـمَ وليس يد   ري مــا قبيلٌ مــن دبــيرِ

إذ خشيتُ أن يكون السوسَ الذي ينخر في بهجة الخليفة التي بلغت هنا ذروتها والله، كان باشًّـا وجهه ينظرُ إليَّ، ثم يميل برأسه مترنماً كغصنٍ نفث عليه نسيمٌ عليل إلى يحيى والآخر المتملق، ثم إني لمَّا قلتُ:

ومخـــــــصَّراتٍ زرنـــنـــا   بعد الهـــدوِّ مــن الخُــدورِ

ريَّـــا روادفـــهـــنَّ يلـ   بسنَ الخواتمَ في الخصورِ

أشار لي بيده:

ـ حسبُك.

ثــم تحدث مع يحيى همساً، فقام من فوره ليتجاوزني خارجاً من

الشرفـة إلى الداخـل، كان أحـد الحاجبـين يضحـك وهو يُشـير للآخر بـشيء؛ لكنه ثبت وتأهب في مكانه آن أن مـرَّ الوزير من عنده، كنتُ قد التفت دون عمدٍ؛ أنتظر ما سـيجري دون وجلٍ يقيناً، فإشارة الخليفة لي بالوقوف لم تنبئ عن شيءٍ قد أساء لمجلسه، ولا لشيء قد يسوؤني، سأل الخليفة هشاماً:

ـ هل كنتَ تظنُّ أبا العتاهية يقول مثل هذا؟

ـ لا والله يا أمير المؤمنين، وإن كان شاعراً مفلقاً لا مراء في ذلك، ولعل هذه قبل تنسكه.

ـ إذاً أنت مدينٌ للرجل؟

ـ بِمَ؟ ..أنا لم أكن.. حسـناً إن كنت ترى ذلك يا أمير المؤمنين، فأنا مدينٌ له، فَلترَ ـ أبقاك الله ـ كيف أقضي دينه عليَّ؟

ـ ما ترى؟

توجـه لي الخليفةُ بسـؤالِهِ، ولم تكن من أماراتٍ أسـتطيع أن أقف عـلى صفتها بدقة، فهي بين أن تكون حازمة وليِّنة، وبين أن تصبح جادةً وساخرة، قلت:

ـ لا رأيَّ لي بحضرةِ الأمير، فنفسي لك بزمامها ولجامها.

ـ وإن ألزمتُك بقوله؟!

ـ إن كان لزاماً، فما أرى إلا أنَّك قد قضيتَ عنه حين أفصحت له أمامي، وما في عفوي عنه إلا فضلٌ وكرامةٌ منك.

ـ تالله غلبك مرتين يا هشام.

ثـم ضحـك الخليفة بما لا كنتُ أظنُّه يدعو إلى ذلك، فتبعه هشـامٌ بخزيـه، وبقيتُ ببسـمةٍ صفراء أدعو الله ألا يكشـفها لهم عـن حقيقتها التـي أبطنتهـا في نفسي، فأنا مـذ دخلتُ ما كنتُ إلا ضاناً بنفسي أسـعى إلى أن أحفظهـا مما هو أكبر من التزلّفِ والمداهنة، ذلكما اللذَيْن كانا أكبر مـا أعتقد مـن كبائر الضعة والهوان، فإذا هما سـبيلي إلى أدنى غايةٍ لي من الفرج، وقد كان يعزيني عن ذلك أنني غيرُ مؤمنٍ بما أقول، وقد أذِن الله تعالى لمن تكلم في دينه ورسـوله إذا خشي على نفسـه، فكيف بنفسي وأنا لا أروم إلا نجاتها!

لم يمـضِ كثيرٌ حتى جاء الوزير ومـن ورائه ثلاث قيناتٍ لم ترَ في جمالهـنَّ قطُّ عيني إلا ما كان من روح أسـماء زوجي غفر الله لها ورحمها، وتلـك المرأة المجهولة التي أرسـلتُ شـكواي للوزير عـلى فتوى قاضي الحميراء بدفنها في مقابر غير المسلمين.

ـ مـا قصةُ هذه الفتـوى؟ أراك تعودُ على ذكرها، ثم ما خبرك عن تلك المرأة؟

ـ كان لأبي الحسن جارٌ يهودي قضى في اليوم الذي وافق إيابي إلى خورستان من الحميراء، وكان أبو الحسن محبةً منه لبقائي عنده سوفَّ وعداً كان قد وعده لي بصنع حدوةٍ لفرسي عند حدادٍ يعرف إتقانه في السوق، فكان أن قضى جاره فعزم ألا تذهب جنازته دون أن يمشي فيها إلى حيث مثواها الأخير، وأن يكون على رأس من يُعزَّى فيه إذ كان مقطوعاً مما يمتُ له بقرابة في هذا المصر عدا ما يعرف من الناس، وكانوا قلة، يهوديان أغلب الظنَّ أن أخذتهم فيه الحمية لدينهم قبل معرفتهم العارضة به، وكاهن المعبد الوحيد الكائن في أطراف الحميراء يتقدمهم لإقامة طقوس صلاتهم عليه وتسابيحهم وتعاويذهم. هؤلاء كانوا كل من يعرفه هذا الرجل؛ زيادةً على أبي الحسن، أمَّا أنا فحضرتُ لأن صاحبي وعدني أننا سنعرج إلى السوق حالما نفرغ من الدفن، ولم أكن لأقبل حتى أقسم لي بأغلظ الأيمان من أنه سيفعل هذه المرة، وأنا لولا أني قضيتُ من الأيام الثلاثة التي كنا قد ألزمنا بها أحدنا على صاحبه، لم أكن لألحف عليه، وأنا أعرف صاحبي في الطرق التي يتبعها في مماطلته، وقد كنتُ دائماً أقول له ممازحاً: أحمدُ الله أن لم تكن تلك المماطلة في دينٍ يا أبا الحسن، ثم إنَّه يعصر ملامح وجهه على عجل ويقطب من جبينه ويظهر من الجدِّ ما يعترض اعتقادي بهزله كل مرةٍ فيخدعني به، ثم ينشئ لي

مقالـةً عن نفســه، لم أكـن أصدقها عنه إلا أن يعرضهـا لي على تلك الهيئة، فيطلب مني أن أقرضه شـيئاً من المال، حتى يقضي به ديناً عليه عند فلانٍ في قاسط، وآخر في أقصى الصهباء، فأستعجل ما بجيبي من نقودٍ فأمدها لـه كلهـا إلا ما يلزمني للعـودة، فيأخذها ويضحك، ثـم يقول: لن تأخذ هذا الكيس حتى تسـتقبل خورستان وقد اسـتودعناك الله، أمَّا هنا فنحنُ نقـودك وخدمـك، فأضحك وأصارعه لأسـتردها منه فما أسـتطيع، كان حيَّالاً وجريئاً؛ ولكن في محبةٍ وخيرٍ، وما علمتُ يشـهد الله عليَّ موطناً في فزعٍ إلا كان صاحبي في طليعة من يتقدم إليه. أما إذا كانت مناوبة الزيارة عليـه، فإني لا أعسره وأنا أعلم أن تبسُّـطَه معـي وإدلاله عليَّ لا يبقيان في نفسـه حاجةً يمنعها الحياءُ من السـفور، وهذا مما قـد خصني به صاحبي من دون من يعرف خصَّه الله بتوفيقه أنى حلَّ وارتحل. كنا قد تعاهدنا أن نصل بعضنا كل عامٍ مناوبةً منذ أن آب أبوه إلى الحميراء مسقط رأسه بعد أن جاب الأرض بتجارته صبياً ثم شـاباً ثم كهلاً إلى أن سـلَّم الأمر لابنه أبي الحسـن، وكان على طول سـفره ذاك يقيم قريباً منا في خورستان، وقد كان عـلى صلةٍ وثيقةٍ بأبي رحمهـما الله جميعاً، إذ كان أبي يبيع في مظلته تلك بعض الأقمشـة التي يسـتوردها منه، فآلف الله بينهما بما يشـبه الذي بيني وبين أبي الحسـن، حتى أنَّ أمهاتنا قد تصاحبـن، وافترقن من عهد قريب

رحمهنَّ الله، فبقيتُ أنا وإياه، هو على تجارته، وأنا على كتبي التي بعت نصفاً مما تركه لي أبي واشتريتها، وقاسمتُ ابن عمٍّ لي في النصف الآخر؛ حتى لا أشكو الفاقة بين ليلةٍ وضحاها.

عقب أن فرغنا من صلاة العصر بمقربةٍ من المقبرة التي خصصت لغير المسلمين، وكانت شمالاً من الحميراء بنصف فرسخٍ على الأرجح.

تأخرتُ قليلاً عن أبي الحسن وقد اقتحمهم وهم يدنونه من قبره المحاط بحشائش من جميع جوانبه. أومأت لأحدهم برأسي تحيةً أو عزاءً لم أكن أقف بالضبط على المعنى الذي كانت له إيماءتي تلك؛ ولكنني شعرتُ برهبةِ الموت وهي تنفذ إلى نفوس البشر دون فرقٍ بين أصل أو دينٍ، بين حرٍّ وعبد، بين غني وفقير، بين صالحٍ وفاسق، أخذتني تلك الإطراقة وذلك التزهُّد عما يفعلون حتى تنبَّهتُ إلى صوت الكاهن، كان الصوتُ واسعاً عن الكلامِ الذي يردد به تلك التعاويذ وذلكم الدعاء، هزَّ اليهوديَّان رأسهما مع تلاوته، وبقي أبو الحسن خاشعاً مكانه واقفاً بنظره على الكاهن وهو منحنٍ داخل القبر، طوَّفتُ بنظري أرجاء المقبرة، مبتعداً عن الفظاظة التي سأكون عليها إن أنا أعقبتُ هذا المشهد الأُخروي بآخر مغمورٍ في لجج الدنيا عبر سوق الحدادين أبحث فيه عمن يصنع حدوةً لفرسي.

انصرفتُ وأنا غارقٌ في تلك المفارقة بنظري صوب جنازةٍ يحملها ثلاثة رقيقٍ مع سيدٍّ يتقدمهم كان يتحدث مع حفارٍ آخر في ظلِّ عريشه، وما هي إلا هنيهةٌ حتى أخذ هذا معوله ليضعه فوق رأسه، ثم طوَّح بها عالياً على ما كان دوننا كيفما اتَّفق، فوقع قرب قبرٍ وحيدٍ انتصف المقبرة، كنت أعرفُ أن لهم شعائرَ خاصة في ترتيب قبورهم، فجار أبي الحسن قد انتظم قبره في صفوفٍ دون أخرى تتقدمهم بأربعة أذرع غربي المقبرة، هي لكهنةٍ أو من نسلهم، وعليه فلن تقدمه الأجرةُ التي كان يعمل بها، أو الغنى الذي قد يقدره الله له ما حيي لأن يبلغ ذلك الصف. وقد كانت في المقبرةِ أجداثٌ مبعثرةٌ هنا وهناك، لا أعلم لها سبباً، ولكنني لا أعلم فيمَ هذا التلويح والتطويح والعبث؟ صحتُ بصوتٍ بين أن يكون له رجع أو وقف:

ـ ماهذا؟

أجاب الرجلُ الذي قد أومأتُ له:

ـ هذا للرجلِ فينا وقد أهلك نفسه، وللمرأة البغي.

تبادلتُ وصاحبي ـ وقد توقف عن عمله حين سمع سؤالي ـ نظرةَ التعجبِّ ذاتها دون أن ينبس أحدنا لهنيهات ثم عاد ليحثو مع البقية، أمَّا أنا فلم أملك لساني حين قلتُ:

ـ هل هذا كثيرٌ فيكم؟

حـدَّج القـوم إليَّ بأبصارهم، بـما فيهم صاحبي عـدا أنَّ نظرتَهُ لا تحمـل ذلك المعنى الـذي يرمقونني به، خاصةً ذلك الذي أومأتُ له من قبل ثم أجابني.

قلتُ قبل أن يعود الكاهن إلى عمله مع الحفار دون الآخرين وقد كفَّا أيديَهما ينظران إليَّ:

ـ لم أشأ الإساءة وربي.

همهم لهم أبو الحسـن بمثل ما قلتُ واعتذر عني كثيراً، ولا حرج عليه في ذلك وأنا لسـتُ إلا صاحبه الـذي يعرف ما بصدري حتى وإن خرج بغير ما كان قد عرفه وعَهِدَه.

انصرفـتُ بنظري مرةً أخرى إلى العريش وقد أظلَّ السـيد ونصف النعـش الذي وُضع عـلى الأرض مما يليه، ورافق الحفار الثلاثة إلى موضع المعول؛ ليحفروا مكانه. أمَّا نحن فانتهينا وابتدأت مراسـم العزاء الأخيرة من لدنا تجاه الكاهـن وصاحب الإيماءة والإجابة وصديقه الذي ما انفكَّ ينظـرُ لي شـزراً بين آنٍ وآخـر، لم أكن قريباً من المتـوفى، أو مهتماً بأمره حتى أفعل كما فعل أبو الحسـن حين صافحهم وعانقهـم واحداً واحداً؛ لكنني آثرتُ أن ينوب عما لا يعرفونه مني ما كنتُ أزور من كلامٍ في نفسي منذ أن

ولجنا المقبرة، فقلتُ وقد كان غيرَ ما استجمعتُ وزوَّرت:

ـ إن يُلهمكـم اللهُ الصـبرَ تفلحـوا، وما من أحـد أحق بأن يوصى ألا يجـزع سـوى أهله، وأنتم رهطـه في هذا الاقتطاع مـن الأهل، وهذا الانقطاع عن الحياة.

شيءٌ مـا أمهـلَ الكاهنَ في أن يشـكرنا عـلى هذه البـادرة. التفتُّ وأبـا الحسـن تجاه مـا أمهل الكاهـن وأثار الرجلـين أمامنا، كان السـيِّد إيـاه يتدافع العريش الذي سـقط عليه، ولم أعرف كيف حدث هذا وقد وقفـت الريح منذ وقـتٍ ليس بقصير. تزحزح الرجـلُ من مكانه ودفع النعش فسـقط صاحبه، فلم يجرؤ أن يلمسه أو أن تأخذه الحرمةُ فيغطي جزءه الظاهر بما تدلى من الكفن. أظنه كان ينتظرُ فراغاً من أحد الرقيق، لم يسـمعه أحـد منهم إن كان قد نـادى وهم يعملون، حتـى نحنُ حينما تقدمني أبو الحسن، لم نكن نسمع له صوتاً غير أنَّ شيئاً ما من مروءةٍ ظلَّ ينادينا فاستجبنا له. تبعني اليهوديان ببطء. سمعتُ خطواتهما وهمساتهما أيضـاً وإن كنـت لم أتبينها، بلغ المكان أبو الحسـن واقتربتُ أكثر. سـبق النـاسَ عـلى النعشِ، ثم إنَّ السـيد حجـب عني جزءاً من المشـهد، كأنه داخـلٌ فيـه وهو ليس إلا خارجاً عنه. من بين انحناء أبي الحسـن شـمالاً ومكان الرجل يميناً لمحـتُ طرف الملاءةِ الأبيض ملطخاً بدماءٍ ومعفَّراً

بتراب يكشـف عن سـاعد. يا إلهي هـي امرأةٌ إذاً، لا حـول ولا قوة إلا بـالله، أكان هوانهـا من أجل أنها بغيٌّ كما قـال ذاك اليهودي؟! ألا حرمةً لميتٍّ عندهم؟!

دفعـتُ السـيِّد جانباً حينـما بلغتُ، وأبو الحسـن يرفع سـاعدها برفـقٍ لتعـود على النعـش، ويدفع بيده الأخرى رأسـها الـذي مال إليه برفـقٍ حتى تسـتوي على ظهرها، بينما مكث السـيد مكانـه عند أقدامها لا يصنع شـيئاً، أسرعتُ أسـحب طرف الملاءة لأغطـي بها وجهها قبل أن يعتـدل؛ لكن اللهَ أمهلني حتى أنظرَ، ولسـتُ والله أخا غِلظةٍ وجفوةٍ حتـى أقـدمَ على هذا، بل إني لا أتأخر أولَّ تأخرٍّ لي إلا على مثل ذلك من متعلقاتِ الموتى، فليس سـهلاً عليَّ أن أشـاهد تاريخ أرواحهم مُسـطراً في صفحـات أجسـادهم الماثلةِ أمامي، وإني لـولا أن رأيتُ خَوَرَ هؤلاء الناس ما أردفتُ أبا الحسـن في سجيَّته هذه، زد على أنني لو كنتُ في غير هـذا المقام، وغير هذا الظـرفِ الغريب الذي أوجسـتُهُ في نفسي، للبثِتُ مـكاني سـاعة أن رأيتُ سـاعد هـذه المـرأة ملقى عنهـا، ولأشرتُ لأبي الحسن أن يتَّبعني؛ فراراً على غرار عجلة.

مـن النظـرةِ الأولى، ما رأيتُ وجهاً شـاحباً، ولا لونـاً باهتاً، ولا أديـماً مجدبـاً، بل كان غضـاً كأنه نائمٌ لحينـه، أو ميتٌّ للحظته. أشـحتُ

بوجهي من فور أن أَنَّبتني نفسي على ذلك، وكان أبو الحسن قد دفعها قليلاً لتعود على النعش فتستقر عليه تماماً.

ـ هذه المرأةُ ليست يهودية!

لا ريبَ أنَّ الجميع قد صُعق لقولي ذاك ـ وإن بدا على السيد أثرُ ذلك القول شديداً للمدى الذي طرح بهيبته جانباً إزاء ذلكم الاضطراب والتشوش الجلي ـ عدا أبي الحسن الذي رفع آن أن سمع قولي ذلك الجزء من الكفن ثم أعاده وفي وجهه ذلك المعنى الذي ألقيتُهُ بين يدي السيد أريد الجواب. كانت المرأة زيادة على ذلك الجمال، أو تلك العلامات المضيئة، رافعةً سبابة يدها اليمنى، وهذا ما ينافي وجودها هنا من الأصل.

ـ ما شأنُك أنت؟

كان السيد يود أن يعود سيداً في نظرنا حين أعمل ما كان للسلطة في صوته، وقد بدا وسمها في عمامته وعلى كتف عباءته.

ـ ما شأني؟! كيف لمسلمٍ أن يدفن مع غير المسلمين؟!

ـ ليس لأحدٍ من الأمر شيءٌ هنا، ليذهب من لم يكن لديه حاجة!

تقهقر اليهوديان، وفي عيني صاحبي منهما نظرةٌ شامتة يردُّ بها على سؤالي ذاك الذي قلتُهُ عن غير قصد، لم يعزب عني ذلك؛ لكنني

فـوق هذا كلـه، اقتربتُ من الرجل بـكل مودةٍ وأبو الحســن عن يميني متقدماً بطرف، وقلتُ له:

ـ أنت تؤكد على ما قلتُ بكلامك هذا.

في الرجـل لينٌ يخشــى أن ينفـرط من عقد هذه السـلطة التي جاء بأمرها ثم يفسدُ الأمرُ كلُّه.

لم يجـب الرجـل بشيء ولكنه حـدَّق فيَّ دون أن يبـدي انحناءً ما.

أسرع أبو الحسن إلى النعش، ثم أمسك بطرف الكفن فقال:

ـ أتُحبُّ أن ترى ذلك بنفسك؟ ربما لم تتبيَّن ...

ـ كفى! لستُ بصدد أن أجري على إرادتكما، أو أنني من الضعف بحيـث أن أقبل ألا أدفع عن نفـسي اتهامكما؛ لكنني آخذ منكما ما أعرفه بفطنتـي لا بخـوري من غيرةٍ عـلى ديننا، وحرصٍ عـلى إقامة حدود الله فيـه، وما رأيتـماه في هذه المـرأة لم تخطئانـه؛ ولكنها فتوىً قـاضٍ في بغيٍّ قتلتها أمُّها، وما دون ذلك فيما ترغبان به شيء، وإنَّه لأمرٌ قد قُضي.

ـ آبن منصورٍ أفتى بهذا؟

ـ ليـس ابن منصور، هو قاضٍ آخر، تبينتُ الآن أنكما غريبان عن المدينة.

لم يكـن الغريب سـواي؛ لأن الحميراء ليســت بالحميراء دون أبي

الحسن؛ ولكنه لَمَّا كان الأمر لم يجرِ على ذاكرته، نسي أن ينبئني به وهو يعلم منزلة ابن منصورٍ عندي، وقد بدأت بيننا المكاتبات إبان عهد كتابتي في القصر، ولم تزل إلى ما قبل زيارتي للحميراء بهما دون العام بأشهر، كنتُ أثق في علم ذلك الرجل ثقتي ببنوتي لأبي، وقد كان يردُّ على الوزير بعض النقائض التي يمررها بحديث ضعيف أو أثرٍ كسي باستنباط أهل الكلام رداً لا رجعة فيه، وكان الوزير رغم ذلك يكبره، ولا يرى في غيره كفءاً فما الذي تغير؟!

لم يكن يقف أبو الحسن نفسه ولا أهل الحميراء على أمر ابن منصورٍ كيف جرى، أهو من اعتزل القضاء، أم عُزل بأمر الخليفة، فالأقاويل كثيرة؛ يميل أبو الحسن إلى أصحاب الرأي الأول، محتجاً بأن الرجل شاخَ وتداعى للمرض كثيراً في أيامه الأخيرة، حتى أنه كان يحيل بعض القضايا إلى مساعده، أما أصحاب الرأي الثاني فقد قيل أنَّ الأمير لم يكن على وفاقٍ معه في أمور ماضية، فعزله بعد أن استأمنه أبوه على الحميراء وصار ولياً للعهد بعد موت أخيه زيد، أمَّا هذه الأمور فلم أكن أعلم عنها شيئاً غير أني أرى القضاء فاز به حين وُليَّ عليه، وخسر خسراناً مبيناً حين عُزل عنه.

هان عندي أن لم تكن تلك الفتوى تصدر عنه؛ ولكن لم يهن عليَّ

دفـن هذه المـرأة في غير مكانها، حتـى وإن كانت كما قـال ذلك الرجل، رغم أنَّ وجهها لا يوحي بذلك وربي.

ألقيتُ نظرةً أخيرةً على النعش، أبثُّه بعضَ غصةٍ علقت في نفسي، وبأننـي في ذروة الأمـر لا أفهـم حقيقـة ما يجـري؛ لكنني أفسـح لتلك التعاليـم التي وجدتها في الجثـة ممراً من نورٍ في صـدري، أتعقَّبه فيما بعد بأماراته التي ما فتئت تبعث بإشارات حياةٍ ثمينةٍ معلَّقةٍ لم يحن صعودها للسماء بعدُ. داعب نسيمٌ واهنٌ وجهي وأنا أرفع بطرفي تجاه الرقيق وهم يحفـرون، ثم تجـاه قبر اليهودي، ثم على المقبرة، ثم على الرابية التي تحفُّ الطريق تسنمَّها صبيٌّ.

لم تكـن لتفـرغ تلك المـرأة من حديثـي عنها مع أبي الحسـن أثناء عودتنـا، فقـد تطارحنـا حولهـا الأحاديـث، وأفردنا للشـكوك مجلسـاً تتصـدره ريبتنا فيما رأيناه عليها وما قاله ذلـك الرجل. وانتهى الأمر بنا إلى أن اتفقنـا أن نذهـب إلى القـاضي، نسـتعلمه الخبر، فقـد يكون ذلك الرجل كاذباً، وإن لم يكن فنفيد من صاحب الفتوى نفسـها بحجة تلك الفتوى ودلائلها.

لم يزدنـا هـذا القاضي على حديث ذلك السـيد سـوى أن قال بأن أمها ليست في الحقيقة سوى زوجة أبيها، وأنه أرجأ أمرها إلى أن يتشاور

فيه مع عدة قضاة يأتمن دينهم وعلمهم، ولم يكن قد سمح لنا أن نجادله في فتواه، بل راح ينعتنا بأبشع الصفات، وبأننا سوقة لسنا نفهم قليلاً من الفقه، فكيف لنا أن نجادله ونحاجه. ثم دعا بحاجبه ليخرجنا.

ما كان ابن منصورٍ ليفعل ذلك أبداً، هي أخلاق العلماء، أما هذا القاضي فما كنتُ لأتعجبَّ من فعله وهو من أصدر تلك الفتوى الغريبة!

في ليلة سفري، رأيتُها في نومي واقفةً على ذلك القبر الذي كانوا يُعدونه لها في ليلٍ بهيمٍ. نورٌ انبعث منها أضاء أرجاء الرؤيا، كان أحدنا يقترب من الآخر، ولستُ على يقينٍ أينا الفاعل؟ كانت تلتفُّ بحجابٍ على رأسها لم أتبيَّن لونه فبدت به وبالنور الذي يشع منها أجمل ما رأت عيني والله، قالت وهي تشير إلى ما حولها، وقد بدت قبورٌ متراصفة ـ على غير الحقيقة ـ تحيط بقبرها، برز بينهم قبرٌ رُكِزَ في وسطه سيفٌ مقبضهُ من فضة، وتراصت حول جوانبه دروعٌ ما استطعتُ أن أميزَ أياً منها:

ـ أذى!

بدأتُ أوجسُ في نفسي؛ ذهب ذلك الأنسُ الذي كان من نورها المشع، كنتُ أستوضح حينما قالت لي ذلك، أكان ذلك الحديث لي، أم لأحدٍ غيري لم تقع عليه عيني بعد، أعادت قولها وهي تنظرُ إليَّ؛ لكن

بصوتٍ ملأ الحزن أطرافه حتى اختلط بشيءٍ من حرقة:

ـ إنهم أذى.

صعـدت بنظرها إلى السـماء، وكنتُ قد اقتربتُ منهـا أكثر، ثم إنَّها أشاحت بنظرها إلى الأسفل، لستُ متيقناً من أنها دمعةٌ تلك التي سقطت من قريبٍ من وجنتها أو أنها قطرة مطر؛ هكذا أوحي إليَّ على أنَّ السماء ما كانت غائمة؛ لكنني كنتُ على يقينٍ من دماءٍ تسيل على قدمها اليمنى من أعـلى رجلهـا فيما يبدو، ثوبها كان يحجب ذلـك، اقتربتُ منها حتى لم يعد يفصل بيننا سـوى قبر؛ أردتُ أن أسـألها فيم كان هـذا؟ لكنَّ صبياً دون العاشرة بقليلٍ انكبَّ على قدمها يمسـح تلك الدماء بلسانه، وهي تبتسمُ له وتمسـح على رأسـه، بدت الكراهية على وجهي حتى وقع في نفسي من أنَّها اعتادت على هذا وما كانت أمُّها إلا على حقٍّ فيما عملتْ؛ كِدتُ أعود أدراجـي؛ لكنني توقَّفتُ حين شـاهدتُ عجوزاً تركضُ من خلفها تشـدُّ شـعر رأسـها كمن ينوح على ميت، لم تأبـه الفتاةُ وظلَّت تبتسـم للصبي، كانـت أمَّهـا، هكـذا وقر في صـدري دون نبأٍ مـن أحد، ظهر أبو الحسـن في الرؤيـا ليمسـك بأمها ويضمها على صـدره، صدح صـوتُ أذان بغتةً فاختفى الجميعُ وبقيتُ وحدي أرددُّ مع المؤذن إلى أن أفقتُ من نومي.

حين عدتُ إلى خورسـتان بحثتُ في طلب ابن منصور، وكان قد

قيـل لي أنـه مقيمٌ هنا عند ابنته تعتني به مما ألم به مؤخراً، فزرتُهُ وعرضتُ عليـه فتوى ذلك القاضي، فأمهلني أياماً عشرة حتى ينظرَ في ملابسـاتها ويسـأل مـن لديه زيـادةً في الخبر عنها. ومـا كنتُ لأجرؤ أن أسـأله عن سبب تركه للقضاء، وما كان هو ليبتدرني ذلك كما عرفته وعرفتُ عنه.

ذهبـتُ في تأويل تلـك الرؤيا إلى أعلم المفسرين في خورسـتان أبي محمد الطيلسـاني، فقـال لي بأنها أضغاث أحلام، أو أنـه لا يعرف تعبيرها إذا لم تكـن كذلك، ثم إنَّ نفسي لم تهدأ فرويتها لأحد المعبرين المغمورين، فقال: ستدفن الفتاة في غير تلك المقبرة، وللصبي الفضل الأكبر في ذلك، أمـا أمها فأصيبت بلوثةٍ في عقلها. سـألتُهُ عني وعن أبي الحسـن، فأجاب بأني سأصدح بكلمة حقٍّ في أمرها، أما أبو الحسن فلم يظهر له شيئاً.

كنتُ أتمنى أن يصدق ذلك التأويل وأن تذهب صحته بتلك الريبة في صـدري مـن تعبير الطيلسـاني، ومن حديث نفسي مع اسـتحضاري ليوسـف عليه السـلام في سـجني. لكن ذلك خاب حين لم يحدث شيء وتبين أنها أضغاث أحلام لا أكثر.

ثم كانت تلك الرسـالة التـي تعلمها إلى الوزير يحيى عقب نقض ابـن منصور. لكن أتدري؟ أشـعرُ بأني أنقضُ عهـد الخليفة، وليس هذا من صفاتي.

ـ ليس الأمر على ما تقول، يدُّ الخليفة لم تعد تقبض على الأمصار ذاتها التي كانت له حين نفاك.

ـ ليسوا سوى ثلاثة أشهر.

ـ إنَ الأمر متقلقلٌ منذ ما يزيد على ثلاث سنوات، ودعوة ابن المنذر وجدت تأييداً واسعاً لدى الحميراء وشمالّي البلاد، وقد شارفت معركته معهم أن تصل خورستان.

كان قد قيل لي شيءٌ في ذلك من قبل جماعةٍ عربية في تلك البلاد التي رضيتُ أن أنفى بها بعد أن عفا عني الخليفة في رضى لم يسبق أن فاز به أحدٌ غيري، هكذا قال لي الوزير حين ودعني، على أني ما كنتُ أعرف فيمَ كان غضبه عليَّ من الأصل؟ حين قيل لي ذلك ذهبَ من نفسي بعضُ شيءٍ وجدتُهُ من عهدٍ مع الخليفةِ سأنكثه بهذه العودة، حتى وأنا لم أقصد إلا الحميراء، وها هو هذا التاجر الذي نصحوني بالعودة معه يقول مثل ما قالوا، أزاح عني ذلك أيضاً شيئاً مما بقي، فشكرتُه كثيراً في نفسي، ليس على ذلك وحسب، بل على قبوله مرافقتي له في قافلته وإن كانت بأجر، وعلى منادمته لي طيلة هذه الأيام التي قضيناها في السفر وسماعه لحكايتي واهتمامه بما جاء فيها.

أشار إلى ما دون شعلتي نارٍ ملتهبتين، بأنَّ هذا هو باب الحميراء،

لم أكـن أعلم أن قـد كان للحميراء بابٌ؛ ولكن للحرب أسـبابها، وكأنَّ رجـال ابن المنذر خطُّوا حدوداً للحميراء، فلم يكن القادم قادراً على أن يدخـل سـوى من هـذا الباب؛ إذ امتـدَّ على جانبيه خنـدقٌ عرضه مما لا تسـتطيع أن تأتي بفكرةٍ من رأسـك لتثب إلى جهتـه الأخرى. أخرجتُ كيس نقودٍ من جيبي فأعطيتُهُ إياه، أخذه معتذراً بأنه لو لا كساد التجارة في هذا الوقت لما رضي أن يأخذ مني شيئاً، ثم إنَّه سألني:

ـ هل كل النقود التي تحملها مثل هذه؟

ـ أجل، لِمَ؟

ـ إن شـئتَ فأعطيتنَيها لأسـتبدلها لك، فقد سكَّ القومُ هنا نقوداً خاصةً بهـم لا يسـتعملون غيرها، إلا ما كان من مصرٍ بعيـد، أمَّا نقود الخليفة فإنهم لا يتورعون عمن يحملها أن يكون عرضةً لأذاهـم.

ـ وماذا إن أردتُ أن أستبدلها أنا منهم، ثم ماذا عنك وأنت تحمل منها الآن؟

ـ قد تسـتبدلها لديهم؛ لكنني لا آمنهم عليك وأنت غريبٌ فيهم لا تعرف إلا صاحباً لا تدري أين مقامه بعد هذه السـنوات وهذه الحرب؟! أمـا أنـا فيعرفون تجارتي ولن يؤاخذوني بها أصنـع طالما أن كنتُ على رضىً منهم. أنت وشأنك، كنتُ أعرض عليك المعونة وحسب.

قبـل أن نقف أمام الباب عند أحد الحارسـين مـددتُ له بالنقود، خشـيتُ مما قاله، وأنا لم أعد أحتمل من الأذى قدر ما جرى لي. ابتسـم في وجهي وقال:

ـ لـن آخذهـا إن كنـتَ مرتابـاً. سأحبسـها معـي حتى يـأذن لنا الحارس بالدخول.

ـ لا ليـس الأمر كما ظننـت؛ ولكنني كنتُ أفكر في شـأنٍ لي ملياً، خذها ولك أجر استبدالها.

ـ إذاً سأراك بعد غدٍ في ساحة سوق العطارين.

تفحص الحارس وجهي، ثم قال للتاجر:

ـ من هذا؟

ـ تاجرٌ من قاسط، وصاحبُ سفر.

يظهر أنه كان يعرف صاحبي التاجر ويثق به ثقةً لا حدود لها، وإلا لمـا أذن لي بالدخـول ولم يتفقدني وما أحمل من متاع، وهو الذي لم يـرني في نوبةِ حراسـته من قبل أبداً. وأنا مـا كنتُ لأفكر بهذا لو لم يأذن لنا، فحمدت الله أن سارت الأمور على خير.

على بعدٍ قريب من الباب تعذر الرجل عن إكمال المسير وخيرني بين أن أنام معه ثم ندخل المدينةَ صباح غدٍ، أو أن أكمله وحدي إن

شئت. أخذني الحياءُ من الرجل كثيراً، وتذكرتُ أني سأرهقه غداً أيضاً إن أنا نمت معه هذه الليلة هنا في ألا يفرغ لعمله باكراً، ثم إني خشيتُ أن أثقل عليه الصحبةَ، وما عهدتُ على نفسي أن تفعلها لمن هو أقربُ منه، فكيف بهذا الذي جمعتني به الدنيا من بضعةِ أيامٍ وإن كانت على متن سفر؛ ذلك المتن الذي يطوي مسافاتٍ يبسطها التكلف والتحرُّج والزمنُ نفسه بعوائقه التي يأتزر بها.

ودَّعتُ الرجلَ داعياً له، وقد أرشدني قبل أن يأخذ مضجعه إلى أي طريقٍ أسلك من ذلك المفترق، فأنا وإن زرتُ الحميراء من قبل، لستُ من أهلها، ولستُ أعرف سوى جهةٍ جنوبية أدخل معها وأخرج منها إلى خورستان.

تسللت النشوة إلى قلبي، شعرتُ بأني حرٌ كما كنتُ قبل تيك السنوات التي وددتُ أن أسأل الله ألا يحسبها من عمري لولا أنني ظننتُ أن بها من العمل الصالح ما لا مثيل له في غيرها من سنوات الرخاء، أما تلك الأشهر الثلاث التي قضيتها عند العجم فما أنا بواقفٍ لها على صنفٍ يشملها، أهي من قَبيل تلك الشدة، أم من نفر هذا الفرج، على أنَّ معناها الدلالي في المجمل لا يخرج عن الحبس، وإن كانت بمسافةٍ أكبر، بيد أن الخروجَ منها أقربُ منالاً مما تحده

القضبان والحراس.

أسمعُ وقعَ خطواتٍ، تقترب ما من شكٍّ في هذا، التفتُّ ورائي فإذا بغبرةٍ لم أتبين شيئاً منها. كان ضوء القمر دليلاً لي وعليَّ تلك اللحظة، فما كنتُ لأشعل المصباح وقد استعضنا عنه بضوء البدر في ليلتنا هذه. الأقدام تقترب، وبأقصى ما أستطيعه من سرعة سللتُ سيفي الصدئ من غمده الذي كنتُ أتقلده، فإذا بجماعةٍ من العسس يحيطون بي، فاستسلمتُ لهم على أمنةٍ من ألا يكونوا قاطعي طريق؛ لكنهم كانوا كأنهم يبحثون في طلبي، وهذا أشدُّ ما كنتُ أخفيه على أمنتي تلك وما استطعت!

في دار القضاء تلك التي دخلتها مع أبي الحسن قبل أعوام، رُميتُ في يمين الغرفتين اللتين أعدتا لحبسٍ قصيرٍ هناك. صحتُ فيهم أعلمهم بنفسي وبخبري، وبأني أبحث عن أبي الحسن، طلبت منهم أن يأتوني بكبيرهم أتحدث معه، أو بأحدٍ لا يكره أن يكلمني. أسألهم:

ـ ما تهمتي؟ ما شأني معكم؟ ما أمري؟ ما فعلتُ؟

ظننتُهم في البدء يسجنون الغرباء ليتحققوا منهم، وحين نقلتُ لهم حسن ظني هذا، شتموني وسخروا مني ثم ضحكوا علي.

ما كان منهم أحدٌ يُجيبني، أو يبالي بما أقول.

كنتُ أخشـى أن يتكرر قدري بأن أُسجن مرةً أخرى، وكنت أموتُ خشيةً من ألّا أعلم فيمَ أُسجنُ في كل مرة قُدِّرَ عليَّ ذلك!

أغلقـوا البـاب وتركوني في غمرةِ دهشـتي مما يجـري، وكيف جرى؟

أتعلّـق بالباب، أصيحُ بهم من نافذته؛ وما أجدُ طاقةً في نفسي على ذلك ولا شهوة، أتوضأ من إناءٍ موضوعٍ قرب الباب، فأستوي في صـلاتي. يتبادر إلى أذنيَّ صـوتُ رجلٍ يئن، واهنٍ..جريحٍ.. شيء مـن ذلك الألم الذي لا تحتملـه النفس بصيحةٍ ولا تقوى على ذلك، أبداً كأنه هذا الذي يُنكأ في روحي فلا أجد له بالغاً من الإيمان يربط على الجزعِ الذي يسيل منه.

جاء الصبحُ ليدخل عليَّ أحدهم وأنا نائم محل صلاتي. يقتادني إلى ما كان ذلك القاضي يعيب عليَّ وأبي الحسـن أن كنا سوقةً لم نبلغ مـا بلغه هو من علـمٍ وإيمان. لا أعلم لِمَ أبدو غير مبالٍ؟ ربما لأنني لم أقف على ما سيحدث لي بعد، أو أن الثلاث الفائتة جعلت مني ممنَّعاً على المسكنةِ في مثل هذا؟!

كان متاعـي بين يدي من دعاني منهم، وسـيفي ملقىً وراءه.

سألني حين وقفتُ أمامه:

ـ ما اسمك؟

ـ أبان بن مهل بن أبي العلاء.

ـ ممن؟

ـ من خورستان.

قطَّب بحاجبيه، بدا عليه حزمٌ لكن بشيءٍ من الرفق يغلب عليه. كنتُ أدعو الله في سري وأسأله النجاة على يدي هذا الرجل.

ـ ما الذي جاء بك إلى هنا؟

ـ أبحث عن صاحبي أبي الحسن بن الفضل الحُمَيري.

ـ أبا الحسن!

قالها ثم التفت إلى الرجال الذين حوله وقد بدا بعضهم يتبسم:

ـ ما مقدار ما بينكما من صحبة؟

ـ هو المقدار الذي بعثني في أن أراه عقب ثلاث سنواتٍ حُبستُها في قصر الخليفة، ثم أشهر ثلاث نُفيتُها إلى بلاد العجم، فخالفتُ عهد الخليفة في وجهٍ من سوء ظني بنفسي لآتي في طلب صاحبي.

ـ هل تعني أنك لم تقدم إلى هنا من خورستان، أو مما يلي بلاد العجم من مصرنا؟

ـ أبداً. قدمتُ من منفاي.

ـ ما علامةُ ذلك؟

ـ ابعث من يقص أثري وذلك التاجر.

ـ وهل تعرف أين هو الآن؟

ـ لا، كل ما أعرف عنه أنه تاجرٌ يُدعى أبو حكيم.

ـ هل تعلم من يُكون السجين الذي يمكث في الغرفة الأخرى؟

ـ لا، ولا يهمني.

ـ هل كنت لتفديه بنفسك لو علمتَهُ؟

ـ إن كان أبا الحسن، فنعم.

ـ فيمَ هذه؟

كان يشيرُ إلى إضبارةٍ من كتبٍ ابتعتُها من وراقٍ عربي هناك:

ـ لأقرأ، أجد صلتي بالحياة وبالناس فيما أشرتَ إليه.

أومأ برأسه، فأمر رجاله بأن يعيدوني إلى الحبس، صحتُ

فيهـم ورجوتُهُ أن يقفوا بي حتى أحدثه. سـمح لهم بذلك عند عتبة الباب:

ـ نشدتُك الله أيها السيد، من نزيل الغرفة التي أمامي؟ هل هو أبو الحسن؟

ـ لا.

ـ ما تهمتي إذاً؟

ـ أخشى ألَّا تكون لديك تهمة!

ـ وهل سيؤخذ عليَّ بذلك؟!

أشـار على رجاله بأن يأخذوني. لم أكد أسـتطيع مع الحارسين أن أدخـل حبسي دون أن يدافعوا بعـض رجالٍ فاضت بهم الحجرةُ التي أمامي. حين أُغلق عليَّ قربتُ أذني من الباب حتى أسمع. بدت همهماتٌ من عدة أصواتٍ لم أتبيَّنها، ثم سمعتُ أحدهم يقول:

ـ تـالله مـا هـذا دواؤك يا عـدو الله، إنَّ دواءك مـا تعرفه مما لا تطيقه من أيدي الرجال؛ لكنها سنةٌ قد مضت.

عارضه آخر:

ـ وددتُ أن لو كنتَ بعافيتك حتى لا أبقي في عظمك لحماً.

وآخرُ يتحسر:

ـ آهٍ لـو كنـا سـبينا إحـدى أخواتـك هنـا، لتنظر مـا نفعل بها أمامك!

ثم اختلطت الأصوات وتداعت ولسـتُ أدري أصوتٌ منها أنكـر على هذا الأخير ابتذاله وفحشـه وسـفالته أم لا. ما كان يجدرُ بهـم أن يفعلـوا به هكذا، ما بال هؤلاء القوم؟ لا أرى بهم نقصاً عن أذى رجـال الخليفة، أفإذا تم لأحدٍ أمـرٌ يتمكن به من رقاب الناس آلى ألا يراعـي في ذلك إلا أدنى ما في نفسـه من ضعةٍ، وأعلى ما فيها مـن هوى، حتى إن الشـيطان ليـبرأ إلى الله من ذلك السـوء قبل أن يكون له ذلك في الآخرة.

أسـمعُ صوتَ الرجل الذي حقق معي آنفاً يعتذر من الرجال في إخراجهم. وقفتُ لأسترق النظر إليهم وهم يخرجون، حين أطل آخرهم برأسه خشيتُ أن يذهب دون أن يسمعني، قلتُ له:

ـ ما أنتم فاعلونه بي؟ ولِمَ أنا هنا؟

التفـت ليذهب دون أن يظهر مبـالاةً بما أقول، فقلتُ بصوتٍ أعلى:

ـ تالله سيسـألكم الله عني، ومـا أظنك إلا كريماً أدخلتك هذه السياسـةُ في ظلمي، وما شيءٌ أقسـم الله على نـصره كنفس المظلوم، وإني والله لأخـذٌ بناصيـة هـذه القبلة فادعو الله عليكم دعوةً أقسـم بالله ألا يردها أبداً!

وقـف على حاجـزٍ كان يؤدي إلى مكانه الآنـف، ثم التفت لي كأنَّه خشي من طرقي لأبواب السماء، فقال وهو يشير لي بيده:

ـ بقيتْ لك عندي علامةٌ واحدة تبرئك. سل الله أن يأتي بها!

ـ بل أسأله النجاة دون أن أطمع بما في يديك منها.

أشـحتُ بوجهي، وفي الرجل ذاك أمـلٌ أنازعه نفسي ألا تميل إليـه. يدور في أذني صوت تلـك القينة التي طلبهـا الخليفةَ أن تغني ما أنشـدتُه لأبي العتاهية حينما أوقفني ليسـتدعيها الوزير، لا أدري ما الذي يناسـبه هـذا فيما أتمرغُ فيه الآن. والله لو كنتُ شـاعراً مُجيداً لما اسـتطعت في غمرةِ هذا السـواد الذي يكتنفني من وجه الدنيا أن أقول بيتاً يصف حقيقة ما يقع علي، وما أشعرُ به.

الحجرةُ التي أمامي تُفتح ثانيةً.. أحدهم يدخل:

ـ اليـوم يومٌ يجزيك الله فيه.. يومٌ ندفع فيه عن حدٍّ من حدودِ

الله وقد انتهكته بما في يديك من إمرةٍ وسطوة..

صوت صبيٍ بين أن يبلغ ودون ذلك بقليل يسفهه. ما قصة هذا الرجل؟ ما الذي اقترفه بحق هؤلاء كلهم حتى يأذنوا لهذا الفتى أن يجهلَ عليه، والله إني لأظنُّ أنهم جاءوا عليه بإهانةٍ لا يتمها سوى أن يُدخلوني عليه وأنا جاره الغريب في هذه المصيبة لأفرغ فيه من حرٍّ ما في نفسي ما لا يستحقه ثم يعودون بي إلى غرفتي.

تُرى من يكون هذا النزيل الذي بقدر إمرته وسطوته حقَّ لهم أن يجهلوا عليه. وددتُ في نفسي أن كان ذلك القاضي اللعين، ووالله إن هذه الشتائم واللعنات لا تصلح إلا لمثله بسوء ما صنع!

عدتُ لما جرى بيني وبين كبير هؤلاء العسس، فحين جرى على لساني ذكرُ أبي الحسن تعجَّب تعجبَّ من ينكر معرفتي به، وكأنَّه أحق بتلك المعرفة مني، كان كأنه يعرفه، أو بينهما شيءٌ ما، ليس للكراهية فيه نصيب، ليتني أقف على ذلك، بل ليتني أخرج من..

- أبشر يا أبان

زاغت عيناي وسجدتُ لله وما والله أذكر أني سبَّحتُ أو حمدتُ أو استغفرتُ الله؛ لكنني خارٌّ على جبهتي أبكي. رفعتُ فإذا

برئيسهم إياه يبتسم ويقول ماداً إليَّ بمتاعي وبجانبه الصبي:

ـ ستذهب لصاحبك برفقة هذا الفتى. بعثنا من يعرِّفك له فعرفك.

قلتُ وأنا آخذ متاعي عدا السيف:

ـ وكيف لا يعرفني؟ ثم لِمِ لا يأتي إليَّ؟!

أجاب الفتى:

ـ إنه جريحٌ وأوصاني أن آتيَ لآخذك إليه.

ـ جريح؟! ممَّ؟

ـ أجل؛ لكنه يتماثل للشفاء. لا تجزع يا عم!

ـ هلُّمَ بنا إليه، هل انتهيتم أيها السيد؟

مدَّ لي بسيفي:

ـ نعم، كان هذا بصدئه علامةَ براءتك الأولى؛ لكن والذي برَّأك لأخذنَّ بحقك.

ـ إذاً ما كان الأمر محصوراً على التحقيق؟! إلى الله المشتكى، كُن بخير.

ارتبتُ في أمر الصبي وقرابته من أبي الحسن، وإن كان لم يسبق

لي أن رأيتُهُ وأنا الذي أعرف أبناء عمومته وخؤولته وأبنائهم؛ لذلك سـألتُهُ ومـا كنتُ معتاداً على مثل هذا، قال لي أنـه يتيمٌ من قريةٍ بنانة تعهـده أبـو الحسـن بوصيةٍ من عمه. تحـدث عن ولائـه لابن المنذر كجميـع أهل الحمـيراء والصهباء ـ منبـتُ دعوته ـ وما كان شـمالاً منهـا جهة ثغرٍ على البحر بينهم وبين العجم، ثم سرد عليَّ كيف أبلى أبو الحسـن في معركـة «القرم» الأخيرة، وكيف أنـه اختلف مع ابن الخليفة ضربتين فنزل كلٌّ منهما عن فرسه، ثم انهال الناس على إياس يريدونه حياً، فطار ذكر أبي الحسـن أن كان سبباً في ذلك، وكان هذا أمـراً فاصلاً بين ابن المنذر والخليفة. وقـع ذاك منذ يومين اثنين، ولم تبلـغ جراحـات أبي الحسـن مبلغاً كبـيراً إلا أن تقعده عـلى الفراش لبضعة أيامٍ، هذا ما قيل للفتى أو عاينه فحكاه لي.

ـ هل تعني أن ذلك المسجون هو سمو الأمير إياس؟!

أمَّـا الفتـى فقد غضـب إذ ما زلـتُ أحفظ على الأمـير إمارته ومقامه؛ لكنه لا يدري ما أمري؛ لذا عذرتُهُ وإن كان قد شارف على أن يسـفِّهني حينما تعجب من أن يصحب رجلٌ كأبي الحسـن رجلاً مثـلي يبجل ذلك الأمير الفاسـق، وما كنـتُ والله أعلم أحداً صالحاً

منهم جميعاً غير زيدٍ رحمه الله، وما فوق ذلك علم.

واهٍ يا صاحبي، تالله وددتُ أن تشاركتُ وإياك هذه الجراحة وهذا الوجع كما تشاركنا اللحظات الهانئة، والبسمات الصافية، والهموم العابرة؛ لكن عزائي أنني أتوجعُ لك أضعاف ما يتوجعه هؤلاء الناس عليك، منذ أن أطبق الفزعُ على صدري مما تفعله الدنيا بأحبابي زمن أسري وكنتَ أنت على رأسهم، ثم من تلك الأخبار الموحشة التي بلغتني في بلاد العجم عن الحميراء واضطراباتها بين الفريقين، ولم أكن أعلم من قبل أنها أذعنت لذلك الداعي الجديد، وكانت نفسك ـ حفظك الله ـ أخشى ما أخشى عليه فيها، والله لو تعلم يا صاحبي أني أتيتُك وما فيَّ من ذلك الذي تعرفه سوى محبتك ومقدار ما انحنى من ظلي لشقَّ عليك أن أملأ نظري ـ أسِفاً ـ من هذا الضماد الذي يغطي ترقوتك إلى أسفل من زندك!

أقبّل رأسهُ ثم يحمد لله بلهجة المحب أن أبقاه لهذه اللحظة حتى يراني فيما تبقى من عمره، وقد طالت به أهوال هذه الحرب وضاعفته حتى كأنَّ هذه الثلاثة عشرٌ، وكأنَّ هذا الحسم الذي يقترب حقيقةً لا يأتي. كنتُ أعرف هذه الوجه، كان وضاءً جميلاً

لا يعكر صفو تجاليده سـوى ما غطى عارضيه من شعر أفاض عليه بهـاءً أكثر، ثـم هاهـو الآن ناتئٌ من هنـا، مخدوشٌ من هنـاك، تملأه نـدوب الجراحـات وآثـار الرضـوض؛ لكنه في نفسي هـو صاحبي الذي أحببتُ، كما أنا بغبرتي هذه في عينيه الآن.

أشار عليَّ بيمينه:

ـ والله مـا حبسـك عني إلا أن تُسـجن، أو تمـوت فيبعثك الله من بعد.

ـ أجـل، كنـتُ في سرداب الخليفـة أرسـف في ظلـماتٍ بـين حيطان أربعة ليسـت رحبةً كما قد يخيل للسـامع وهي تطوقني حتى تكاد تدق عنقي.

ـ والله إني قلـتُ بذلك قبل أن يبعث خالدٌ ابن عمك بنسـخةٍ مـن ورقةٍ لابن منصورٍ ـ رحمه الله ـ وُجدت فيها نسـيه عند ابنته فيها توقيعـه عـلى رسـالةٍ إلى الخليفـة بطلبٍ منـك، عقـب أن تقصى مع صهـري عنك، واقتحـم بيتك فلم يجدك. ولـمَّـا بلغني ذلك أجزمتُ أنك إنما حبستَ وفي ذلك الأمر.

ـ أي أمر؟!

نظر إلى الصبي، ثم قال له:

ـ هـذا مـن كان معي في المقـبرة، وهو الذي تحـدث مع عامل الأمير في شأن معلمتك وأغلظ عليه!

بكى الصبي، ثم أقبل علي وقبَّل رأسي ويدي، ثم قال:

ـ أرجو أن تسامحني يا عم.

أردف أبو الحسن:

ـ وهو من أرسـل للخليفة رسالةً في شأن فتوى ذلك القاضي الهارب لعنه الله، ثم.. ثم سُجن.

أجـج الصبي مـن بكائه حين أردف أبو الحسـن، فأخذتني به شفقةٌ لا مثيل لها جراء بكائه المرير، ثم قلت:

ـ ما الأمر يا أبا الحسن؟

ـ هـل تذكـر تلـك المـرأة التي دفنت مـع جـاري اليهودي في المقبرة؟

ـ أجل.

إنَّـه في ما تلى ذلك اليوم الذي ودعتني فيـه بليلةٍ، رافقت ابن خـالي ـ وقـد كان أحد رجال ابـن المنذر ـ إلى ما بيننـا والصهباء على

طريـق المقـبرة ليلاً، كان قد أمضى بضع نهارٍ فقـط في عملٍ له أنجزه على عجلة، ثم لمَّا افترقنا بإزاء المقبرة، سمعتُ أصواتاً ورأيتُ سراجاً لا يـكاد يُرى إلا بعد تمحيـصٍ من النظر، فانطلقتُ بفرسي إلى هناك حتـى دخلـتُ المقبرة. وجـدتُ رجلـين يردفهما هـذا الصبي يحثون الـتراب على قـبر تلك المرأة، عرفت أنهم حملوهـا منذ وقتٍ إلى بنانة حيـثُ قُتلت هنـاك لمَّا دافعت دون عرضها أمـام ذلك الماجن إياس الـذي اختطفها وأتاهـا مراتٍ وكراتٍ مع رجاله، ثـم قتلها ورماها أمام حانةٍ قديمةٍ في الحُميراء، ثم ألصق تلك التهمة بأمها وقد كانت ممـن لها رفقة قديمة مع أمـه قبل أن تُصاب بلوثةٍ في عقلها فأخذوها بهـا عندهم حيلةً أمام الناس، شـاهِدُ ذلك بضـع رجالٍ أبت عليهم مروءتهـم أن يأتـوا مثـل ذلك أو يخرسـوا عنه، كانوا معه في بسـتانه ببنانـة حيث يأتي لها أواخر كل شـهرٍ ليقيم فيه، وإنهم الآن من أحد رجال ابن المنذر الثقات. كان رجال العسـس في إثري وما علمتُ، فراوغتهم، وقد قتلـوا واحداً وجرحوا الآخر، وكان القتيل هو عم هذا الصبي وكافله، فأوصى به إليَّ حينها، فهرعتُ به إلى الصهباء في أعقاب ابن خالي حتى إذا أمنتُ معه، تقطعت إلينا الأخبار هناك بأن

رجال الأمير داهموا بنانة فاستحيوا نساها وذبحوا رجالها فما كان من ابـن المنذر إلا أن يعزز دعوته بمثل تلك المظلمةِ التي سـيدفعها عن أهـل تلك البقعة، فغمر مـا يصل من الصهبـاء إلى الحميراء برجاله وعسـكر هناك مدةً حتى بدأ يناوش أطرافاً من الحميراء، فاستدعى ذلـك الأمير أن يكف عن بنانـة وأن يلتفت للحميراء، فانقضُّ جندُ ابـن المنذر على بنانة وقد كنـتُ معهم في أول معركةٍ فطردناهم عنها شر مطـرد، ثم إنَّه لم يبـقَ للصبي أحدٌ من أهلـه، فمضيتُ في وصية عمـه لي، حتى إنه ولمشـيئة الله ـ سـبحانه ـ يا أبـان، لم يصلوا لقبرها وقد نبشـوا كثيراً مـن القبور حتى يتحققوا منهـا؛ ولكنَّ الله أعماهم عنها وقد توسطت قبرين اثنين أتوا على عظامها نبشاً ونقباً. كانوا في تلك الأيام قد تذرعوا للناس بأنَّ أهل بنانة إنما كانوا يمررون دعوة ابـن المنـذر إلى الحميراء، فشـيطنوها أمام الناس حتى لم يعد يشـفق عـلى أهلهـا إلا مـن رحم الله، ثم إنَّـه يا صاحبي لـو تعلم كيف هي رحمة الله بهذه الفتاة وكيف كان سـترهُ عليها وقد كانت هي الشـعار الأكـبر لدعـوة ابن المنذر إلى نفسـه بعد أن حـدث لبنانة ما حدث؟ طوَّع الله له الأمصار فأخذ الحميراء وقاسـط وما والاها وشمالاً من

الصهبـاء وغربهـا حتى طمر أمر الفتـاة في أوجِ ذلك، ولم يبقَ ممن لا يجهـل أمرهـا إلا من هو آخذ بحقها. وقد قدَّر الله لي في تلك المعركة أن أهوي بالسـيف عليه فأصيبه قبل أن يصيبني، حتى تكالب عليه القـوم، وقد أراد خالٌ للفتاة من قبل أن يقوم بذلك بنفسـه، فحبس حتى يحضر!

ـ متى سيكون ذلك؟

ـ بعد صلاة عصر اليوم إن شاء الله.

كان قد أجاب الفتى، ابتسـمتُ ولست أدري أَبَدَا عليَّ ذلك؟ أم بقي في سري؟ فقلت لأبي الحسن:

ـ ذلك تأويل رؤياي يا أبا الحسن!

ـ رؤياك، وما رأيت؟

ـ رأيت..

طُـرق البـاب، فذهب الصبـي ليفتحه، سـأل الطـارقُ عني، سـمعتُهُ فخرجـتُ إليه، كان قائد العسـس، ومن خلفـه رجلٌ يجلد آخر ملقى على ظهر حمار، قال لي:

ـ لقد مكَّننا الله من الفاسـق الذي ادَّعى بأنك أحد جواسيس

الخليفة علينا، وآلينا أن تأخذ حقك منه أمام الناس.

رفع الرجل القريب منه رأسه لما رأى استنكاري، فإذا به هو ذاك الذي..

صحتُ:

ـ أنت؟! أين مالي يا خبيث؟!

تمت

مبارك الهاجري

ظُلمات

ألقيتُ نظرةً أخيرةً على النعش، أبثُّه بعضَ غصةٍ علقت في نفسي، وبأنني في ذروة الأمر لا أفهم حقيقة ما يجري؛ لكنني أفسح لتلك التعاليم التي وجدتها في الجثة ممراً من نورٍ في صدري، أتعقَّبه فيما بعد بأماراته التي ما فتئت تبعث بإشارات حياةٍ ثمينةٍ معلَّقةٍ لم يحن صعودها للسماء بعدُ. داعب نسيمٌ واهنٌ وجهي وأنا أرفع بطرفي تجاه الرقيق وهم يحفرون، ثم تجاه قبر اليهودي، ثم على المقبرة، ثم على الرابية التي تحفُّ الطريق تسنمَّها صبيٌّ .


SBN 978-603-01-6194-2
786030 161942

